قد أفلح من تزكى

ماهية التصوف

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

إسطنبول: ١٤٣٥/ ٢٠١٤

اسم الكتاب باللغة التركية: Tasavvuf Mahiyeti

اسم الكتاب بالعربية: ماهية التصوف

الترجمة للعربية: د. محمد حرب/ عبد الله المصري/ محمد سيف.

مراجعةو تصحيح وتدقيق: أحمد حمدي/ محمد سيف

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٧٠٥٧

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:

دار الأرقم

▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : http://www.islamicpublishing.net

من الإيمان إلى الإحسان

ماهية التصوف

تأليف

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

الحمد لله البارئ الذي نفخ في الإنسان من روحه، والشكر لله الرازق الذي منح عباده نعمة التفكر والتأمل، والصلاة والسلام دائمًا وأبدًا على سيد الخلق محمد ﷺ؛ القدوة الحسنة، خير خلق الله عبادة وخلقًا، وأكملهم تفكرًا وتأملاً، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

التصوف في حقيقته هو قلب الإسلام وجوهره وبُعده الروحي، إذ إن هدف الإسلام ورسالته الرقي بروح الإنسان، وفطرته إلى أسمى الدرجات وأرفع المنازل، وتفجير ينابيع المحبة والوجد المكنونة في فؤاده، عبر الفيض الروحاني الذي ترفده السماء بمدد رباني، لاسيما عندما يعيش أهل العزائم والمجَاهَدات هذه المعاني شاخصة حية في الأخلاق والسلوك.

مما يعني أن التصوف هو المحضن التربوي الأمثل، والفرع الأسمى الذي يُنبت الثمرة في شجرة العلم الوارفة، وحديقة الإسلام الغنَّاء.

وقد توالت الكتابات النفيسة طِوال الطريق في عمر التصوف، مرشدة أهله، مخاطبة إياهم على مستويات ثلاث:

- أرباب التفكر العميق الذين ارتقوا مراتب عالية (الخواص).
- ذوي التفكير المتوسط.
- طبقة العامة الواسعة (العوام).

ويمكن في هذا السياق أن نذكر كتابي "فصوص الحكم" لابن عربي (المتوفى سنة ١٢٤٠) و"الإنسان الكامل" لعبد الكريم الجيلاني (المتوفى سنة ١٤٠٣) اللذين يخاطبان أرباب التفكر العميق والواسع، أما الكتب الأخرى مثل كتاب " المثنوي " لجلال الدين الرومي (المتوفى سنة ١٢٧٣) فهي موجهة أحيانًا للعقول المتفكرة، وأحيانًا أخرى لذوي الفكر المتوسط. والغاية من هذا النوع من الكتب إدراك الحقيقة ومعرفة الله من خلال فوزهم بالفتوحات الربانية والإلهام، إضافة لما لديهم من علوم ظاهرية. وثمة أعمال أخرى مثل "أنوار العاشقين" لأحمد بيجان (عاش في القرن الخامس عشر)، و"المحمدية" ليازجي أوغلو محمد (المتوفى سنة ١٥٤١) و"نفحات الأنس" لعبد الرحمن الجامي (المتوفى سنة ١٤٩٢)، وهذا النوع من الكتب يخاطب العوام، ويهدف إلى إيصال المسلمين الذين استطاعوا إدراك الحقائق الشرعية إلى أعلى مستوى ممكن في الشعور والإدراك والسلوك.

إن تنوع المؤلفات حول موضوع التصوف يهدف إلى تمكين الخواص والعوام في المجتمع من فهم الإسلام، كلٌّ حسب إدراكه وقدرته، وإدراك حقيقته وتطبيق محتواه الواسع إلى أقصى درجة، وهكذا يصير الشخص -حسب تعبير السلف الصالح- "ذا جناحين".

ويخاطب التصوف - عبر أساليبه كلها - جميع طبقات المجتمع، ويقف حاجزًا منيعًا أمام الكسل والخمول في أوقات الرخاء الاقتصادي والترف الاجتماعي؛ ليُحافظ على ما تبقى لديهم من النشاط والحمية، كما أنه استطاع خلال الأوقات العصيبة المليئة بالاحتلال والظلم أن يوجِد متنفسًا روحانيًا يتسامى بالأفئدة فوق حطام الدنيا وظلامها الكئيب، ويُقدِّم بلسمًا للأفئدة الجريحة، وهدياً للعقول الحائرة، وكوثراً للأرواح القاحلة، فالتصوف يعلم الأشخاص الذين ارتقوا إلى أوج الأخلاق الحميدة والعبادة التواضعَ والمحو[1]، ويبعدهم عن الغرور والكِبر والإعجاب بالنفس، ويقدم من ناحية أخرى طوق النجاة للعبيد الغارقين في مستنقع الذنوب، هذا الطوق يتمثل في العفو الواسع والسماحة والرحمة.

فبعد الاجتياح المغولي للأناضول عمت الفوضى فيها، وانتشر الاضطراب والمعاناة، وبرزت في تلك الفترة التيارات

١ المحو: رفع أوصاف العادة، أي نفي العبد الخصال الذميمة عن أحواله.

الصوفية المؤثرة، كما برزت الكثير من الشخصيات الصوفية الكبيرة، فكانت ملجأ لتهدئة ومواساة الناس هناك، وهذا ما تُحدثنا عنه كثير من وقائع التاريخ. واليوم تنجرُّ البشرية كلها إلى دوامة كبرى من المعاناة، وخضم هائل من الاضطراب، ولا يمكن أبدًا إنكار الحاجة إلى روحانية التصوف وتجاربه التي تشفي الأفئدة وتنقذها من تيه الدنيا، فإخواننا الذين نجوا من براثن الإلحاد هم مثل "الطيور الجريحة" يحتاجون إلى علاج معنوي ناجع، وحالة أرواحهم وأفئدتهم في هذا السياق مثل حالة الظمآن الذي يحتاج إلى شربة تروى ظمأه وروحه.

وثمة كثيرون من الذين عانوا جفاف المادية في الشرق والغرب، ثم فهموا هذا الدين من خلال أهل التصوف، وأدركوا معانيه وأحبوه عبر جاذبية هؤلاء المتصوفة وجمالهم الروحاني، انتهى بهم المطاف إلى اعتناق هذا الدين العظيم.

وبعد كل هذه الأسباب المذكورة، والوقائع الشاخصة للمأساة التي تحياها الإنسانية، تبرز لنا في الأفق الأسمى حقيقة التصوف، وسموه المترفع عن دنس الدنيا، وارتقاؤه بأهل الإيمان من وهدة الطين إلى أعلى عليين؛ إنها نعمة الإيمان الناضج بعدما أمدتها الفيوضات الإلهية، فزادتها حلاوة ورسوخًا في القلوب، وهنا تبرز حقيقة التصوف وأهميته، فهو طوق النجاة في أمواج الحياة المتلاطمة، وهو المعراج الذي يرتقي بالعبد إلى درجات

الكمال وسماء الجمال، وهو لغير المسلمين نبراس الهداية في عالم الحيرة، والذي يمهد لهم الطريق إلى الإسلام بمعناه الحقيقي.

فالتصوف في حقيقته هو المرآة القلبية التي تعكس النموذج الأمثل للتطبيق العملي للإسلام عبر إظهاره حيًا نابضًا في مرآة حياة النبي ﷺ، ويستمر هذا الانعكاس وتلك الصورة الحية دائمة دوام العصور؛ حية حياة الأجيال، نافخة فيهم الروح حتى النفخ في الصور.

ولعل في ذلك دليلًا قويًا ودامغًا على أن كبار أرباب التصوف لم يحيدوا قيد أنملة عن اتباع سنة المصطفى ﷺ بكل رسوخ ودقة.

وما دام التصوف يحافظ -بكل هذا الرسوخ والدقة- على الاتباع السني، فهو يحافظ -بكل تأكيد- على وجود واستمرارية التنزلات السماوية، والفيوضات الربانية كغيث من السماء يروي المحبة في الأفئدة على مدى الأزمان؛ محبة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

وهذا هو السر الأكبر في وجود الإسلام واستمراره، وامتداد تأثيره القوي؛ رغم ضعف حال المسلمين وتأخرهم المادي.

لذا؛ نجد أعداء الإسلام - ظاهرًا وباطنًا - يسعون بكل عزم إلى قطع الاتصال بين السماء والأرض، وفصل الروح عن الجسد من خلال توجيه سهامهم إلى التصوف، ورميه بشبهات تشوه صورته، وتُظهره مختلفًا عن الإسلام، وللأسف فإن هناك

أشخاصًا لا يدركون المؤامرة وأسرارها، ولا يدركون حقيقة التصوف وأركانه، فتراهم ينخدعون وراء زيف هذه الشبهات.

وإزاء ذلك؛ كان لزامًا علينا تدارك خديعة هؤلاء، وانخداع أولئك؛ بإظهار معاني التصوف وجوهره الحقيقي، وتصحيح المفاهيم الخاطئة حوله، وهي محاولة مبدئية، وخطوة أولية، في توصيل النور إلى الأبصار، وكشف الغمام عن البصائر؛ لتدرك المعاني، ومن ثم تعيشها وتستمتع بها.

ولعل كتابنا هذا هو خطوة أولية في هذا الطريق، وصفحة واحدة ضمن كتابات ثرية عن عالم التصوف.

وثمة لمحة مهمة نريد أن نقدمها إلى قارئنا الكريم، فقد يبدو لأول وهلة أن هذا الكتاب من تأليف كاتبه؛ لكنه حقيقة هو من تأليف أولياء الله ﷻ، أي إن جميع الفيوضات والفضائل في هذا الكتاب هي فتوحات وإلهامات من العالم العلوي لأهل الله، وتقتصر وظيفتنا على تبليغ هذه الفيوضات مرتبة بحسب الحاجات والظروف، وكما استفدنا من الأعمال والمؤلفات السابقة أثناء إعدادنا لهذا الكتاب، فإننا وجدنا أصدقاء كثر كانوا لنا مثل "الكتاب الحي"، ونريد أن نذكر دورهم بكل شكر وافتخار.

وأخيرًا، نرى أنه من الواجب -الذي يمليه علينا ضميرنا- أن ندعو بكل محبة وإخلاص لكل من ذكر في هذا الكتاب من أهل الله ﷻ، ولأحبابنا الأكاديميين ذوي الفضل.

إلهي!! على قلة علمنا ونقص إدراكنا، فإننا أردنا أن نجلّي حقيقة التصوف وعالمه الواسع بهذه الأفكار، فبارك لنا يا رب فيها، واجعلها نبعًا دائمًا للفيوضات يستقي منه قراؤنا المحترمون.

إلهي!! هب لنا ولإخواننا القراء بهذا العمل المتواضع فيضاً من نعمك التي لا تعد ولا تحصى، واجعل هذه النعم تليق بعظمتك وقدرتك يا أرحم الراحمين... آمين..

عثمان نوري طوبّاش

أُسكدار- إستانبول

ذي الحجة ١٤٣٥هـ/ أيلول ٢٠١٤م

قال رسول الله ﷺ: «قُل آمنت بالله ثم استقم» (مسلم، الإيمان، ٦٢)

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾
(الأحزاب، ٢١)

أ. أصل التصوف:

لقد أفاض الله تعالى على الناس نعمًا لن يحصوها؛ ومن أسمى هذه النعم مدده الإلهي للجسد والروح الإنساني؛ حيث نفخ فيهم من روحه، بقوله تعالى:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر، ٢٩)

وبهذا خص الله البشرية بأثمن جوهرة نزلت من السماء، ووهبهم أنبل المعاني، وأرفع القِيَم، والمقابل البسيط الذي أراده منهم -وفاءًا لهذا العطاء- أن يكونوا عبادًا محبين لذاته؛ مخلصين لوحدانيته، فيواصلون أخذ نصيبهم من معرفته، ويواصلون النهل من نبع محبته، والوصال مع حضرته.

ومن المنح الإلهية لبني الإنسان أن كرّمهم بمجموعة من الصفات الراقية التي تسمو بهم إلى طريق الهداية؛ ليس هذا فحسب؛ بل أمدهم مِن نبع فضله باختيار خاصة الخاصة من بينهم

وهم الأنبياء، وأنزل على هؤلاء الوحي؛ ليكون البلاغ مهمتهم، وحين ينقضي زمن النبوة والأنبياء، يأتي زمن ورثة الأنبياء، وهم العباد الصالحون الذين لا يخلو منهم زمان[٢].

وقد بدأ اختيار وإرسال الأنبياء الهداة مع بدء خلق الإنسان، فكان أول البشر هو أول الأنبياء؛ لتكون الهداية من البدء إلى المنتهى.

إن طريق الهداية المباركة هذا؛ الذي تدفق من فيض القدرة الإلهية كشعاع النور، وتسلسل عبر حوالي مائة وعشرين ألف نبي بدؤوا هذا الطريق، وواصلوه واحدًا تلو الآخر، جاء متوازيًا مع تطور الإنسان ومكملاً له، وهذه السلسلة التي استمرت في التبليغ -وبالتوافق مع خصوصيات كل عصر، ومستوى المخاطبين فيه- وصلت في نهاية الأمر إلى مستوى الكمال والذروة مع قدوم سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

لقد ظهر نبينا ﷺ بنوره قبل سيدنا آدم عليه السلام، وكان آخر نبي بجسده، أي إنه يمثل الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب النبوة، وبعبارة أخرى بدأت رسالة النبوة بالنور المحمدي، ووصلت إلى نهايتها بالجسد المحمدي، وبهذا يكون النبي محمد ﷺ النبي الخاتم زمنًا، والأول خَلقًا[٣].

---

٢ انظر: البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١.

٣ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ أحمد، جـ ٤، ١٢٧.

وبما أن الدافع لخلق الموجودات كلها هو النور المحمدي[٤]، فإن الحق تعالى أحيا النبي محمداً ﷺ حياة مثالية نموذجية، أو بالتعبير القرآني " حياة طيبة " لينال بجدارة لقب "حبيب الله"[٥]. لقد أكرم ربنا الإنسانية جمعاء بأن جعل النبي ﷺ هدية وهدياً وسراجاً منيراً، وذلك بعد أن ربّاه في حياته الاستثنائية الخاصة ظاهرًا وباطنًا على أفضل وجه.

لقد جعل الله تعالى من السيرة النبوية المباركة، ومن شخصية النبي الكريم ﷺ النموذج الأرقى والأسمى للسلوك البشري الذي تحاول الإنسانية الدنو منه؛ كل إنسان حسب جهده واجتهاده، مهما كانت قدرته ومنزلته، فالله تعالى قد جعل الإنسان الكامل محمداً ﷺ هو "الأسوة الحسنة" للبشر جميعًا في الأخلاق والسلوك، وهو الذي رسم وسار في المنهاج الذي تستطيع البشرية كلها السير فيه.

لقد بدأ النبي ﷺ حياته من أدنى نقطة، وهي العجز البشري عندما كان طفلاً يتيمًا، ومر بكل ما يمكن تخيله من مراحل ومحطات الحياة البشرية ومنعطفاتها؛ حتى أوصله الله إلى أعلى المستويات المادية والمعنوية، المادية من حيث النفوذ والسلطة والقدرة ورئاسة الدولة، والمعنوية حيث النبوة والرسالة.

---

٤ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨.

٥ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ ٥، ٤٨٩.

ووفق هذا المنهاج النبوي الذي يصلح لكل زمان ومكان، ويصلح لكل درجات ونوعيات الإنسان، يستطيع كل بني البشر السير في هذا الطريق، ومواصلة هذا المنهاج؛ متخذين من النموذج النبوي المثال والقدوة والمدد المادي والمعنوي؛ بل يستطيع الجميع أن يطمع ويطمح إلى الوصول إلى درجة النجم السماوي الذي يستمد نوره من الكوكب الدري المحمدي.

لقد خلق الله رسوله ﷺ وجعل من مجمل حياته وتفاصيلها في الأفعال والأقوال والحركات والسكنات نموذجًا يُحتذى، وأسوة تُقتدى، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)

وذلك لكي تصل البشرية إلى حالة نموذجية في كمال السلوك الأخلاقي والإيماني، وبتعبير أخصّ إلى كمال السلوك الصوفي، هذا الكمال يبدأ -ببساطة شديدة- بالتقليد والاتباع وفق مقدرة العبد وطاقته، ويتدرج ليصل في نهاية المطاف إلى إتقان الاتباع وحقيقة التأسي، ويكون ذلك بمقدار محبة النبي ﷺ، واتباع سنته، ومن ثمَّ نكون أهلاً لتنزُّل الفيوضات الروحانية، والتجليات العلوية التي لا تنقطع، وذلك هو شرف الدنيا والآخرة.

لقد خلق الله تعالى فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ بأفضل فطرة ظاهريًا وباطنيًا، ورباه أحسن تربية، وقد بين سيدنا محمد ﷺ

هذه التربية الإلهية حين قال: **"أدبني ربي فأحسن تأديبي"**[٦]

هذا الإنسان الكامل ﷺ منذ أن شرف العالم بمولده، عاش أربعين سنة في مجتمع جاهلي مكتظ بالأرجاس والأدناس والظلمات، لكنه ﷺ كان دائمًا محميًا في بوتقة الحماية الإلهية؛ يترعرع في كنف الرعاية الربانية، ولم يصبه قط لفح لهيب الجاهلية، ولا مسه قط هبوب سمومها، فقد حصّنه الكنف السماوي ليعده الإعداد الرباني للمهمة النبوية، فقد شُقَّ صدره ومُلئَ بالحكمة، ثم استُخرِج قلبه وانتزع منه حظ الشيطان، ولم يعد في الصدر والقلب الشريفين مكان ولا أثر للمؤثرات الدنيوية؛ بل صار موئلاً للفيوضات الربانية والأنوار الإلهية، وموطنًا للسكينة والحكمة، والرأفة، والرحمة، والإيمان[٧].

وعاش رسول الله قبل نبوته حياة فحواها ومبناها ومعناها توحيد صادق، لا سيما في الأوقات التي قرب فيها تكليفه بالرسالة؛ حين نذر نفسه ليكون عبدًا خالصاً لله، فقد كان يعتزل في جبل النور بين الحين والآخر، ويستغرق في تفكر عميق، وكان سبب الانعزال في – الظاهر – أنه باخع نفسه على آثار قومه، نتيجة انتشار الضلال والظلم والبؤس بينهم، إضافة إلى شعوره تجاههم بالرأفة والرحمة.

---

٦ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢؛ المناوي، فيض القدير، ١، ٢٢٤.

٧ انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، الأنبياء، ٢٢، ٤٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٤؛ الحاكم، ٢، ٦٧٣؛ الهيثمي، ٨، ٢٢٢-٢٣٢.

أما السبب الحقيقي للانعزال، فهو تهيئة الله له لتلقي الوحي الإلهي؛ ألا وهو القرآن الكريم من الله إلى القلب المحمدي الطاهر، وانتقاله للإدراك البشري، وحين وصل قلب سيدنا محمد ﷺ الدنيوي إلى النقاء الحقيقي بهذا التجلي والإلهام؛ ارتقى إلى مستوى يمكِّنه من تلقي الوحي.

وكان يتلقى الإشارات المعنوية والإلهامات على شكل رؤى صادقة على مدى ستة أشهر، وبذلك كُشِفت له أسرار العالم الروحاني، وكانت هذه المرحلة مرحلة ظهور استعداده الفطري لتلقي الوحي الإلهي، وحمل المسؤولية الثقيلة التي يستحيل أن يحملها الأشخاص العاديون، وأشفقت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وكانت أشبه بعملية تحويل الحديد إلى فولاذ بواسطة المزايا الطبيعية التي يمتلكها المعدن. إنها نفس المزايا البشرية، ولكن بمؤثرات ربانية.

بهذا التحول جمع سيدنا محمد ﷺ في شخصيته وسلوكه جميع فضائل الأنبياء، ومهامهم، وكراماتهم، وكفاءاتهم(٨)، فقد وصلت أصالة النسب والأدب والسعادة الجمالية والكمالية فيه إلى ذروتها، وقد جمع ﷺ في دعوته بين الحقيقة والشريعة، أي بين القوانين الشرعية والحقائق الصوفية، وكما كان قدوة للعباد في العبادة؛

---

٨ انظر: القاضي عياض، الشفاء، ١، ٤٨.

كان قدوة للزهاد في تطهير القلب، وتزكية النفس، وعلَّم أصحابه السلوكين الظاهري والباطني، علمهم كيفية الدعاء والتعبد بالقول والعمل والسلوك الشرعي، وبالقلب والنفس والشعور الصوفي، وكان لهم وللبشرية كلها النموذج الأسمى في الطريقين، وكانت البشرية على موعد لتبلغ نقطة تحول جذري في مصيرها ومسيرها؛ عندما بلغ النبي ﷺ عامه الأربعين، وتلقى التكليف بالرسالة الخاتمة.

❁

والتصوف في جوهره هو الوصول إلى حالة يكون فيها القلب سليمًا؛ يتلقى فيها المعرفة عن الله تعالى، والمحبة من معيتها، ويدنو رويدًا رويدًا من الحضرة الإلهية لينعم بوصال الله تعالى؛ فهذا الدنو هو نضج إيماني على نار المحبة، ونور المعرفة، ولذة القرب، وهذا النضج هو طريق النجاة الذي اتخذه النبي ﷺ وبدأه في غار حراء، ثم في غار ثور، وأورثنا إياه، ثم واصل ﷺ طريق الرقي، ومعراج الوصول في أزمنة وأمكنة أخرى، ومواقف تربوية ربانية عبر الوحي، مما شكل الروافد الفياضة لتطهير القلب وتزكية النفس.

ومع أنه ﷺ كان قد وصل قبل الوحي إلى درجة قلبية سامية، ومرتبة روحية سامقة، وعاش حياة منزهة في ظل أخلاق مثالية؛ إلا أنه انطلق بعد نزول الوحي إلى آفاق أرحب، ومن سماء إلى سماء؛ حيث اللانهائية في ملكوت الله، فقد اتصل مع ربه –جل

وعلا- بقلب ثابت وجنان قوي، ويقين راسخ، واستوعبت جزئياته ونُويَّاته البشرية نور التوحيد الإلهي، فكان بشرًا رسولاً وصل إلى أقصى أمد في التقوى والخشوع في عبوديته، ولم تمنعه هذه المكانة في العبودية من مواصلة العبادة في آناء الليل وأطراف النهار؛ حتى تنتفخ قدماه، وتفيض عيناه، فإذا كَلَّ الجسد ونامت العينان؛ ما كان الفؤاد لينام وإنما كان دائم اليقظة؛ ذاكرًا شاكرًا مراقبًا لله تعالى.

حتى إنه ﷺ صار عبر حياته وسلوكه سلسلة لا تنقطع من المعجزات؛ بل امتدت هذه المعجزات من خلال أقواله وأفعاله وسنته عبر العصور والأجيال، وما تزال تتحدى العلوم الحديثة في كل تفاصيلها وحركاتها وسكناتها.

كما صار القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي الكريم ﷺ إعجازًا في كل حرف من حروفه، وما احتواه من علوم وحكمة وهدى، ثم صار الاثنان - القرآن ومن أُنزل عليه القرآن - إعجازًا ربانيًا في التربية والسلوك والأخلاق، تتمنى البشرية كلها أن تصل إلى أعتابه.

كانت هذه التربية المعجزة على المنهج القرآني المعجز؛ هي التي أوصلت النبي ﷺ إلى درجة متناهية من النضج القلبي والروحاني؛ أهَّلته أن يصل إلى مكان ومكانة لم يصلها كبار الملائكة حتى أمين الوحي جبريل، وصار النبي ﷺ "المسافر إلى الغيب" في رحلة

المعراج؛ التي كانت هدية منقطعة النظير بين الحبيب والمحبوب، فتجاوز النبي ﷺ جميع الحدود الزمانية والمكانية والكونية، ونزل ضيفًا مكرمًا على ربه، ولم يكن ثمة وصف لهذه المكانة تصفه لغات الدنيا؛ إلا قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم، ٩)(٩)

إذ فاقت هذه الرحلةُ -رحلةُ الإسراء والمعراج- حدود الإدراك البشري، كما فاقت حدود الزمان والمكان، وكانت المعايير الإلهية فقط هي التي تضبط ما كان، وتعرفنا أنه بالإمكان فقط لرسول الله - الذي طويت له الآفاق والأعمار والأعصار، وتجاوز ﷺ العوالم والكرسي والعرش وسدرة المنتهى، ثم كان التجلي الإلهي ورؤية عين الحق بعين اليقين- رؤية الله تعالى بغير ستار، ومخاطبته سبحانه بلا واسطة(١٠).

---

٩ قاب قوسين أو أدنى : لقد عبر سيدنا محمد ﷺ في ليلة المعراج سدرة المنتهى، وهو المكان الذي لم يتجاوزه أي مخلوق بما فيهم جبريل عليه السلام. وقد بينت الآية: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ المسافة للإدراك البشري، وحدث اللقاء الذي يستحيل أن يدركه أي عبد. انظر: سورة النجم، الآية : ٩.

١٠ قال القاضي عياض: "وأن هذا الدنو والقرب من الله عز وجل ليس بدنو مكان ولا قرب مدى، وليس بدنوِّ حدِّ، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه، وقربُه، إبانة عظيم منزلته، وشريف رتبته، وإشراقُ أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرةٌ وتأنيسُ وبسط وإكرام، يتأول فيه ما يتأول في قوله ﷺ: "يَنْزِلُ ربُّنا إلى سماء الدنيا". نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان. انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جـ ١، ١٧٨.

ونعود من أقصى آفاق ما بعد الأكوان؛ إلى أسباب خالق الأكوان، وإلى واسطة الوصول ومعراج القبول؛ إنه النضج الروحاني والكمال القلبي، فقد استطاع النبي ﷺ أن يواصل مهمته في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وهداية البشرية جميعًا، وأن يواجه التكتل الظلامي الجاهلي الذي أراد أن يكبت هذا النور في مهده، ويطفئ جذوته، على أن الوعد كان سخيًا، والوعيد كان قويًا، إلا أن الرد المحمدي الواثق كان –على بساطته– قاطعًا وجليًا.

أخبر المشركون سيدنا محمداً ﷺ بواسطة أبي طالب أنهم يريدون منه عودته عن دعوته، وكان الجواب النبوي على هذا الطلب دستورًا للثبات على الحق، ودليلًا على رسوخ الإيمان:

"يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته" (١١)

وبعد أن رُفض العرض الذي قُدّم عبر أبي طالب من المشركين المنزعجين من انبثاق نور الإسلام؛ جاؤوا هذه المرة إلى رسول الله ﷺ، وتجرؤوا على تقديم العرض التالي:

"فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك

---

١١ ابن هشام ١، ٢٦٥-٢٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، جـ٢، ٦٤.

علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذِر فيك".

فكان رد رسول الله ﷺ على الغافلين من كفار قريش - وكذلك المساومين على الإيمان في كل زمان - بمثابة صخرة إيمان شامخة تتكسر على أعتابها كل موجات المساومة على الدين واليقين، فرفض جميع مطالبهم السفلية والنفسانية التي قدموها، والتي سيقدمونها:

"ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمولكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تَرُدُّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"[١٢].

كان هذا الموقف والبيان الذي لا يعتريه أي شك قدوة للإنسانية جمعاء، وأظهر درجة الكمال التي وصل إليها في ثباته على الإيمان، وإدراكه للمسؤولية، وكانت عبوديته خالصة لا تشوبها شائبة، نقّاها الله تعالى كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس.

---

١٢ ابن هشام ١، ٢٩٥-٢٩٦.

لأن الأصل في هذه العروض والنداءات التي قُدِّمت لسيدنا محمد ﷺ - والتي ستقدم لكل السالكين على الطريق - كان التخلي عن الآخرة مقابل التنعم بالدنيا، وتاريخ الإنسانية مليء بالأمثلة عن أشخاص باعوا مسؤولياتهم ومثاليّاتهم، وأغراهم السعي وراء الأشياء الفانية والانغماس في الهوى والهوس، وضلوا طريق الحياة الأبدية.

وإذا تساءلت عن سر هذا الثبات، ومصدر هذه القوة، ونبراس هذا العالم من المثالية والنور؛ تجده القرآن الكريم، ومعه السنة النبوية، وهما المبادئ الجوهرية للدين الإسلامي، فالقرآن الكريم يأخذ بيدك إلى معرفة الله تعالى، والثناء عليه، ثم يبدأ معك طريق الهداية بتطهير القلب، وتزكية النفس، والإقبال عليه سبحانه، واللجوء إلى بابه، والاستئناس بجنابه، والاستسلام الكامل لإرادته؛ بعد الأخذ بأسبابه، ثم تأتي السنة المطهرة تطبيقًا عمليًا ميسرًا وكاملاً لمبادئ القرآن وهدايته، وأساليب التطهير والتزكية للنفس، والوصول بها إلى عليين.

لقد أكرم الله تعالى البشرية جمعاء، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ بإنزال القرآن الكريم الذي هو النداء الإلهي الموجه إلى البشرية، ليحفز حواسه وعقله وفكره، وليدرك ذاته، ويدرك الكون حوله، فيصل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الحقة؛ عبر معرفة مخلوقاته وكونه المعجز؛ عبر التفكر والتأمل؛ إذ تصل إلى الصانع من خلال

المصنوع، وإلى المسبب من خلال السبب، وتصل إلى الخالق من خلال مخلوقاته[١٣].

إنها الإشارة الإلهية لطريق الهداية، ولسبيل المحبة، ولأسلوب الذكر والفكر، ولوسيلة التقوى والإحسان، والعيش الدائم في معية الله ورؤيته تعالى بإدراك أنك دائمًا وأبدًا تحت الرقابة الإلهية.

فالإنسان هو صفوة المخلوقات التي تلقت النعم الإلهية، وذروة البشرية كلها في هذا السياق هو الوجود المحمدي.

إن الإنسان هو المثل الأعلى لجميع الكائنات، ومن خلال هذا الإنسان نستطيع أن نرى العالم المليء بالمكنوزات اللامتناهية، لهذا فهو يُدعى بـ"العالم الصغير".

فالإنسان يحمل في كينونته سر العالم الكبير؛ تمامًا كالبذرة التي تحمل سر الشجرة وأصلها؛ كذلك كالذرة والنواة التي هي اللبنة الأساسية في صرح الكون وسره الأكبر، وقد جعل الله الإنسانَ "أشرف المخلوقات" لأنه مدار هذا الكون ومركز حوادثه وأحداثه، فإليه نزلت الرسالات، وله خلقت النار والجنات، وعليه تقوم الساعة وتحشر الكائنات؛ أي إنه محور كل الحادثات.

١٣ كما أجاب به الأعرابي ببداهته الأصمعي عن دليل سؤاله: بمَ عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير. (السفاريني، لوامع الأنوار البهية، دمشق ١٤٠٢، ١، ٢٧٢).

فإذا أدركت حقيقة ومكانة الإنسان في هذا الكون، استطعت أن تدرك مكانة وعظمة الوجود المحمدي الذي هو خير خلق الله وفخر الكائنات.

وإدراك هذه الحقيقة يعتمد على فطنة الإنسان ومحبته، وكذلك على استعداده وإمكاناته.

فهذا هو أبو جهل يلتقي رسول الله ﷺ، وهذان هما أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يلتقيانه أيضًا، وشتان بين إدبار هذا وإقبال هذين، وهكذا حال الناس بين مقبل ومدبر على مدار الأزمان، يكون إقبالهم أو إدبارهم وفق المحبة والاستعداد للترقي، لذلك فقد كانت المحبة والعشق من لدن حضرة أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما هي التي جعلتهما ينالان شرف أول حلقة في السلسلة الذهبية للتصوف.

❀

إن التصوف هو الاندماج الظاهري والباطني بمنهج سيدنا الرسول ﷺ، ثم الغوص فى بحر محبته الواسع؛ فالتصوف هو تجليات الرسول ﷺ الظاهرية والباطنية، الداخلية والخارجية؛ أي إنه "حال" الرسول. لذلك يرتكز هدف التصوف الأساسي على الأخذ بنصيب وافر وحظ وافٍ من قبسات الرسول ﷺ، والاتصال معه في عالم الروحانية.

والتصوف بعبارة أخرى هو الإيمان الممزوج بالعشق، والعبادة المضمخة بالوجد وجمال السلوك.

إن التصوف هو قطرات الندى التي تتساقط بالفيوضات على القلوب المليئة بالمحبة لهذا النور المحمدي المبارك؛ هذه الفيوضات التي بدأت "بالنفخ من روحه" في البداية في آدم ﷺ، والتي وصلت إلى مستوى كمالها في سيدنا محمد ﷺ.

ولن تكون قادرًا على استيعاب حقيقة الأهلية والقدرة التي تشكل جوهر التصوف، والتي كانت تنتقل في حياة النبي ﷺ من القلب إلى القلب ومن الفرد إلى الفرد؛ إلا من خلال معرفة عميقة ومفصلة عن حياة هذا النبي المبارك ﷺ ومهامه.

وكما أن الرسول ﷺ هو القدوة الأسمى للبشرية في كل نواحي الحياة، فإنه أيضًا المثل الأعلى في تربية الناس وتزكيته نفوسهم. وعلى المستوى النبوي، فقد كُلِّف سيدنا محمد ﷺ بالكثير من المهام والمسؤوليات، وتأتي في مقدمة هذه المهام التي كلفه الحق تعالى بها أربع مهام أساسية وهي:

١. تلقي الوحي الإلهي:

فقد تلقى الرسول الكريم ﷺ الكلام الإلهي عبر جبريل، وتوقف تلقي الوحي الإلهي - الذي جاء طبقًا للإرادة الإلهية - حين انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

٢. شرح التعاليم القرآنية:

يشتمل القرآن الكريم على أحكام وحقائق أوضحها وطبقها رسول الله ﷺ من خلال أحاديثه الشريفة وسيرته العطرة، وأخذ

المجتهدون على عاتقهم هذه الأهلية العلمية، ومسؤولية البلاغ والتبيان بعد وفاة رسول الله ﷺ.

والغرض من شرح الأحكام الإلهية وإيضاحها، هو تقديمها في قالب عملي يتوافق مع الحياة البشرية للوقوف على حاجات العباد، ويسمى هذا العمل الذي يقوم به العلماء المسلمون الموثوقون بـ"الاجتهاد"، وهو عملية مستمرة، ويبقى الاجتهاد ضرورة دائمة حتى حين يغيب أهله، ويتولى وظيفة الاجتهاد هؤلاء العلماء المؤهلون.

٣. تنفيذ المسؤوليات الإدارية:

أي القيادة، والوقوف على تطبيق الأوامر والنواهي الدينية على مستوى المؤسسات والدولة، واستمرت هذه المهمة على يد الخلفاء (أولي الأمر) من بعده.

٤. تطهير أرواح البشر وتنظيم عوالمهم الداخلية بتزكيتها:

كان رسول الله ﷺ ينظم العالم الداخلي للناس، ويزكيهم، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ستستمر هذه المهمة دون انقطاع على يد المشايخ بالصورة نفسها التي يتطلبها استمرار المهام الأخرى، عدا تلقي الوحي الإلهي؛ لأن تطهير المؤمنين لا يقتصر على تطهيرهم من الظاهر فحسب؛ بل يتعدى ذلك إلى الباطن.

وعليه فإن سبب التصوف وأساسه هو استمرار هذه المهام النبوية في كل مكان وزمان، وهي مهام مستمدة من القرآن الكريم،

والأحاديث النبوية الشريفة، لذا؛ فإن استمرار الشيوخ – أرباب التصوف – دون انقطاع هو أمر ضروري واحتياج دائم.

❀

ونعود من جديد إلى سيدنا أبي بكر الصديق ﵁ فهو الحلقة الأولى في السلسلة الذهبية للتصوف.

فبعد ثلاث عشر عاماً من الجهاد في التربية والتزكية والبلاغ والرسالة في مكة، كانت الهجرة المباركة، وكان غار ثور إحدى محطات الحياة والطريق، وأحد محاضن التربية والإعداد الإلهي.

ففي هذا المكان ظهرت بعض التجليات الإلهية، حيث إن هذا الغار بات مدرسة تفيض بالحكم الإلهية النوعية والانكشافات القلبية.

واستمرت الاستضافة فيه ثلاثة أيام بلياليها، ولم يكن رسول الله ﷺ وحده هناك، فقد كان بصحبته سيدنا أبو بكر ﵁، وهو أشرف الناس بعد الأنبياء، وهو الذي نال شرف وفضيلة الصحبة مع رسول الله ﷺ في الغار على مدى الأيام الثلاثة، فقد كان "ثاني اثنين"، وخاطبه سيدنا محمد ﷺ قائلاً له:

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة، ٤٠)

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن النبي ﷺ علّم أبا بكر ﵁ سر وجود العبد في معيَّة الله، وهذه الحادثة –وفقًا للعارفين– كانت

الظاهرة الأولى لتذكُّر الله تعالى في السر، أي الذكر الخفي، ودلالة على اطمئنان القلب بالله.

وتركز الصوفية على أن غار ثور يعد المكان الذي بدأ فيه انتقال الأسرار الروحية من القلوب إلى القلوب الأخرى؛ حسب المفهوم الصوفي.

لذا فإن سيدنا أبا بكر ﵁ هو أول شخصية مسلمة تتلقى التدريب الروحاني مباشرة من الرسول ﷺ، وهذا هو أحد أهم الأسباب التي تجعل منه الحلقة الأولى بعد الرسول ﷺ في السلسلة الذهبية إلى قيام الساعة فيما يرى الصوفية.

وعليه بات غار ثور مكانًا خاصًا تواصل فيه العبد مع الله المنزّه عن جميع المفاهيم الزمانية والمكانية، وكان مرحلة مهمة في التربية القلبية الأساسية.

ومن ناحية أخرى تقول الصوفية إن رسول الله قد علّم الذكر الجهري لسيدنا علي ﵁، ويجب أن يعرف المرء –إضافة إلى ذلك– أن النبي ﷺ قد أعطى أورادًا متنوعة لعدد من الصحابة(١٤)،

١٤ انظر: البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩، الدعوات، ١١؛ مسلم، الذكر، ٧٩، ٨٠ المساجد، ١٧٧، ١٤٥؛ أبو داود، الوتر ٢٦/ ١٥٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٤/ ٣٣٧٥، القيامة ٢٣/ ٢٤٥٧؛ النسائي، السهو ٦٠/ ١٣٠١؛ ابن ماجة، الأدب، ٥٦؛ أحمد، جـ ٤، ١٨٨، ٢٤٤ – ١٤٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١٠، ٧٤.

وأحيانًا شجع على إقامة حلقات ذكر جماعية منهم[١٥].

إن تنوع تطبيق واختيار الأوراد والأذكار -التي هي أهم وسائل التربية الصوفية- هو السبب الأساسي في تنوع أصول وطرائق التربية المعنوية، وهذا يُظهر أن مصدر الطرق الصوفية هو نفسه مصدر المذاهب الفقهية؛ ألا وهو الكتاب والسنة.

والتصوف من ناحية تشكيله لجوهر الدين موجود منذ سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ، وتظهر الكثير من مبادئ التصوف بالفعل في حياة الأنبياء جميعًا، إلا أن ظهوره علمًا مقررًا، وطريقة نظرية وعملية -كما هو معروف اليوم- وُضع لأول مرة في القرن الثاني للهجرة.

لم يكن هناك أي مذهب من مذاهب الكلام أو الاعتقاد أو الفقه في عهد رسول الله ﷺ، لكن في الوقت ذاته طبق النبي ﷺ الأحكام العقائدية والفقهية وعلمها لأصحابه، إذًا فالفقه كان موجودًا، وإن لم تُدون هذا الإرشادات، أو تجمع كمبادئ علمية منظمة خلال عهده ﷺ. لكن فيما بعد بدأ تلامذة كبار العلماء -مثل علماء الفقه الإسلامي- بجمع اجتهادات المجتهدين، وتصنيفها

١٥ انظر: أحمد، جـ ٤، ١٢٤، جـ ٣، ٢٦٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٦؛ مسلم، الذكر، ٤٠؛ أبو داود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٧؛ الترمذي، الدعوات، ٨٢/ ٣٥١٠؛ الحاكم، جـ ١، ٢١٠ / ٤١٩؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ ٦، ٥٩؛ الهيثمي، جـ ١٠، ٧٦، ٧٧؛ أبو نعيم، الحلية، جـ ٥، ١١٨.

بعضها إلى بعض، وشكلت هذه العملية بداية ظهور المذاهب الإسلامية؛ حيث جُمعت آراء كل عالم كبير تحت اسمه، ومن هنا نشأ الإرث الإسلامي الذي عرف بمذاهب الفقه الإسلامي، وهي: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، واعتنق المسلمون فيما بعد هذه المذاهب.

كذلك التصوف، يشجع الناسَ على اتباع الأجيال المسلمة الأولى في زهدهم وتقواهم؛ هذه الأجيال التي مارست جوهر التصوف خلال حياة الرسول ﷺ، وإن لم تقنن قواعده، وتجعله أسلوبا تربويا ذا معالم ثابتة ومكتوبة، فالتصوف إذًا قديم قِدَم الفقه.

ومع طول الأمد، ركن المسلمون إلى الدعة، وتركوا جهاد النفس فقست قلوبهم إلا من رحم اللهُ، فثبت على الحق ثلة من الأفذاذ الذين لم يجرفهم تيار الدنيا وخضم الحياة، ووقفوا سدوداً منيعة أمام سيل المادية العارم لينقذوا البشرية ويستأنفوا حياتها من جديد ويمدوا الناس بما يحييهم من دين الله، فحملوا الأمانة الثقيلة بشموخ كالجبال، ثم أدوها في صبر وتؤدة وحنو وموعظة حسنة، وأخذوا بأيدي الناس إلى طريق الله وإلى مجاهدة حظوظ النفس والمكابرة ضد شهوات الدنيا، فصنعوا رجالاً بل أجيالاً من العبَّاد والزهَّاد، ولم يكن هدف هؤلاء العلماء اصطناع طرائق جديدة في التربية والتزكية والتصوف، بل كان هدفهم مجرد التربية والتزكية

بأداء العبادات وإجراء المعاملات، والتخلية من الأخلاق الذميمة والتحلية بالأخلاق الحميدة في ضوء مبادئ القرآن وهدي السنة؛ وصولا إلى "الإحسان" عبر "الخشوع"، فكان ذلك السلوك من العلماء العاملين، وذلك الاتباع من المريدين السالكين، وهذه الجلسات والحلقات من التوجيه والإرشاد والوعظ والإمداد، فجُمعت هذه الكلمات والمواعظ والإرشادات والسلوكيات والمجاهدات، وتشكَّل من خلالها نظام روحي، هذا النظام كان هو الطرق الصوفية التي كانت كالمدارس والمناهج التربوية التي حملت أسماء مشايخها وأصحابها، فظهرت الطرق التالية: النقشبندية، والقادرية، والرفاعية، والمولوية، والخلوتية، والجلوتية،... وغيرها.

وكانت تُطلق كلمة "طريقة" على كل أسلوب يسعى لمنهجية التفكر والإحسان والوصال مع الله تعالى في كل فرع من فروع التصوف، ويمكن تقسيم هذه الطرائق إلى ثلاثة أقسام:

١. طريق الأخيار: وهي الطرائق التي تركز على العبادات والتقوى.

٢. طريق الأبرار: وهي الطرائق التي تركز على تربية النفس من خلال المعاناة وتقديم الخدمات الإسلامية.

٣. طريق العشاق: وهي الطرائق التي تسعى للوصول إلى الغاية من خلال العشق والوجد.

والسبب وراء ظهور الطرائق المتنوعة في هذا الميدان مع مرور الوقت؛ هو الحاجة لذلك، وليس من باب الاختلاف؛ حيث إن الناس مختلفون في مزاجهم وشخصياتهم وطبائعهم، لهذا فإن تنوع الطرائق يضمن تربية النفس بحسب ما يوافق طبيعة الشخص، لكي يطهر قلبه، ويصل إلى الكمال الروحي.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة، ٤٨)

إن كلمة "منهاج" هنا تعني لغة "الطريق المنوَّر"، وهي تشير إلى طريق العبودية الذي يتخذه العبد كي يتقرب من الله تعالى، ويقول كبار المتصوفة: "إن عدد الطرق إلى الله تعالى كثيرة كثرة عدد أنفاس المخلوقات".

فعلى سبيل المثال؛ يجد الشخص ذو المزاج الجيَّاش سهولة في الارتقاء وفق الأصول المتبعة في الطريقة القادرية؛ في حين يجد الشعراء والفنانون والرومانسيون ضالتهم في المولوية، أما الأشخاص الذين يسيطر عليهم الوقار والمزاج الهادئ، ولديهم استعداد داخلي عالٍ، يرَون النقشبندية مناسبة لهم، ولهذا يجدون سهولة في تلقي الفيوضات باتباع هذه الطريقة، والسير وفق أصول التربية فيها، وهذه القاعدة تُطبَّق على الطرائق كلها حسب خصائصها.

وهكذا نجد أن تنوع الطرائق هي رحمة من الله، لكن المهم هو أن تكون وفقًا لحدود القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ومن ناحية أخرى تنقسم الأحكام القرآنية إلى ثلاثة أقسام:

١. العقيدة.

٢. الفقه:

أ. العبادات.

ب. المعاملات.

ت. العقوبات.

٣. الأخلاق (الفقه القلبي):

والفقه القلبي هو إصلاح العيب الداخلي؛ أي هو إتمام مكارم الأخلاق، وهو يشكل بطانة العقيدة والسلوك العملي، وبالأخلاق ترتقي الأعمال لتصبح " أعمالاً صالحة " حسب القرآن الكريم، والصفات الأهم التي تشير إلى وصول القلب إلى حالة القبول الإلهي: التقوى والزهد والإحسان.

فالتقوى: هي الإحساس الداخلي بالمسؤولية أمام الله تعالى، وحماية القلب عبر المراقبة الدقيقة للأوامر والنواهي الإلهية، وهو الشعور الدائم في القلب بأن العبد تحت الرقابة الإلهية؛ أي تحت سمع الله وبصره، وذلك بالترفع عن الرغبات النفسانية، وتنمية الاستعدادات الروحية.

والزهد: هو امتلاء القلب بالله، وخلوه من كل ما سواه.

والإحسان: هو إحساس المؤمن دائمًا أنه تحت الرقابة في كل وقت، وتصرفه وفقًا لذلك.

وقد ورد في الحديث الشريف:

"الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١٦].

أي إن الإحسان هو إدراك الروح أنها تحت مراقبة الله تعالى دائمًا، وعندها يصير ارتقاء القلب إلى درجة أعلى ممكنًا حين يستمر هذا الإحساس والشعور، وتنظيم الحياة على هذا الاعتقاد والأساس. وبالوصول لهذه الحالة يتم تصفية القلب، والتصوف من هذا الجانب يعني وصول القلب إلى حالة الصفاء هذه.

❀

فغاية الدين وهدفه ومرماه بناء إنسان متسق مع الكون بجماله الذي خلقه الله عليه، جميل في روحه وأخلاقه وعالمه الداخلي، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده؛ والتخلق بأخلاق الإسلام المثالية، ولا يتأتى ذلك إلا عبر تنقية القلب.

والذكر هو أنجع وسائل التخلية والتحلية، تخلية القلب من دنايا الزخم، وتحليته بفضائل القيم؛ حتى يصير موضعًا لتنزل الفيوضات الربانية، ومرآة صافية تنعكس عليها تجليات الحق تعالى.

---

١٦ انظر: البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ١.

وقد فتح الله طريق الوصول إلى عليين على مصراعيه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فبوسع السالكين والمجاهدين على الطريق أن يبلغوا أعلى درجات المعراج في الترقي الروحاني؛ بعد الانطلاق من حدود الأحكام الظاهرية والأحكام الفقهية، والبناء على أساسها؛ صروح جدرانها هي: "الزهد"، و"التقوى"، و"الإحسان"؛ ما تزال جدران هذا الصرح تتعالى حتى تبلغ الأسباب؛ أسباب السماوات، فتطلع إلى عالم الملكوت بعدما تصل إلى الكمال الإنساني، وهو طريق مفتوح لكل الناس؛ كلٌّ حسب قدرته واستعداده، إنه طريق الترقي المعنوي الذي فتح الله مسالكه للجميع، وفق حكمته تعالى.

والمعراج الحقيقي أو الوسيلة الأسرع في هذا الطريق هو "الإحسان"، والإحسان -كما سبق- هو أن تجعل الله في دوام معيتك، سميعًا بصيرًا؛ رقيبًا شاهدًا على كل همساتك ولمحاتك وإسرارك وإعلانك. وباستيقان دوام مراقبة الله عليك، والوصول إلى تلك الحالة الدائمة من المراقبة؛ تدرك روحك الحقيقة، والسر الإلهي الذي ندعوه "الإحسان"، وهو الهدف الذي يرمي المتصوفون الوصول إليه، وإدراك كنهه.

إنه معية الله والوصال مع أنس حضرته، ومن وصل إلى هذه الدرجة أدرك درجة الولاية، وأدرك مثالية الأخلاق التي يرضى الله تعالى عنها.

هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ، وهكذا كانت حياته الروحية، لم يكتفِ ﷺ بإحدى الطريقتين؛ بل علّم وورَّث الصحابة والتابعين والأمة جميعًا الحياة الظاهرة والباطنة، والسلوكيات والمجاهدات المفسرة وغير المفسرة، فمن اكتفى بالظاهر فقط قصر باعه، ومن تعدى للباطن طال ذراعه، فنال الآمال ووجد الإقبال.

والمسلمون الأوائل ومن تبعهم أدركوا حقيقة التصوف وتشربوا روحه، ووقفوا على مفهومه وكنهه. ولما طال الأمد كان هناك من ساء فهمه، وتسطحت معرفته، وقصُرَ علمه عن إدراك حقيقة التصوف، ومن ثم اتخذ منه موقفًا سلبيًا؛ بل عدائيًا، راميًا إياه بشبهات ومثالب؛ لعل أبرزها هو منشأ التصوف وبدايته.

فقد تنوعت الآراء حول أصل التصوف، وهي آراء لا أساس لها، فمنهم من قال إن أصل المصطلح من الكلمة اليونانية " صوفيا " أي " الحكمة " فقط لتشابه أصوات الكلمة، ومنهم من رأى أن أصل التصوف أصل يهودي، وبعضهم قال إن له علاقة بالروحانية الهندية. وهذه الآراء كلها آراء خاطئة بُنيت على أساس تشابه الكلمات أو المحتوى.

أما في حقيقة الأمر؛ فقد رأى علماء الإسلام أن أصل كلمة "التصوف" هو من مصدر إسلامي بحت، ومن بين الآراء المختلفة حول هذا الموضوع أن منشأ كلمة التصوف هو التصفية والاختيار، أي أنها نشأت من "الصفاء"، و"الصفوة"، و"الاصطفاء".

ومنهم من رأى أنها تعود "لأهل الصُّفَّة"، وهو أول شكل من أشكال التصوف، و"أهل الصُّفَّة" هؤلاء هم بعض العباد والزهاد من الصحابة الذين كانوا يلبسون الصوف دائمًا، ويجلسون في "الصُّفَّة" وهو المكان المظلل في مسجد المدينة الذي كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم رسول الله ﷺ، ومن هنا جاء هذا الاسم، وقد نال الرأي الأخير القبول العام.

كان هؤلاء الصحابة الذين أطلق عليهم "أهل الصُّفَّة" قد أقاموا في المسجد النبوي من أجل العلم والعرفان والروحانية، وكانوا مميزين في زهدهم وتقواهم بسبب حضّ النبي ﷺ على ذلك؛ حتى إن رسول الله ﷺ طلب من أغنياء الصحابة إعالة هذه الزمرة ومساعدتهم، وتشير هذه الحقيقة التاريخية إلى أن السلوك الصوفي يطابق السنة النبوية، ولم يعترض عليه النبي ﷺ بل حث عليه.

وحين ظهرت الخلافات السياسية بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لم يؤيد "أهل الصُّفَّة" أبدًا أي جانب من الجانبين؛ بل بقوا على الحياد، وأخذوا العبرة من اختلاف المؤمنين، وما نتج عنه من ضعف مشاعر الأخوة، وازدادوا زهدًا وتقوى، وبات هذا الحال وسيلة لزيادة النشوة. وقد رأى بعض الصحابة الآخرين في دخول هذه الخلافات خطرًا معنويًا، ومشوا على خطى أهل الصُّفَّة، وهكذا زاد عدد المتمسكين بطريق الزهد والتقوى.

ومع مرور الوقت أخذ مصطلح "أهل الصُّفَّة" المشتق من "صُّفَّة"، وكلمات "تصوف"، و"متصوف" المأخوذة من رياضتهم الروحية، وتقواهم، ينتشر بعد نشأتها، وأخذت الصوفية مكانها في مجرى التاريخ، وبدأت تتأسس الطرق الصوفية.

❀

لقد كان الأصلان -القرآن والسنة- هما عماد التصوف وركيزتاه، ومنهما انطلق المتصوفون الأوائل في المجاهدة والسلوك، وفاضت إرشاداتهم وعظاتهم ومؤلفاتهم بالتأكيد على أسس الطريق ومنطلقاته، وحدوده وقيوده، فكانت كتاباتهم وآراؤهم -التي لقيت انتشارًا وتأييدًا وإقبالاً واسعًا- مثلها مثل آراء المجتهدين من الفقهاء أصحاب المذاهب.

لكن التصوف -شأنه شأن كل العلوم والأفكار والمذاهب- وجد من أساء تطبيقه؛ تمامًا كما وجد من أساء فهمه، فقد وقعت بعض الزلات -أو الكثير من الزلات والشطحات- من المريدين والسالكين؛ بل حتى من بعض المشايخ وأصحاب الطرق؛ الذين ربما قصر فهمهم عن إدراك حقيقة الدين باطنيًا وظاهريًا، وربما غلبهم "الحال"، فأساؤوا السلوك؛ إذ غلبتهم "النشوة الصوفية"، فأساؤوا العلم والفهم.

لكن الجواد الأصيل سرعان ما يقوم من كبوته، ويتعافى من عثرته، فتداركت "الطرق" زلاتها، وتدارك "الشيوخ" أخطاءهم،

وقوّموا انحرافاتهم، وجاء على رأس الطرق أناس من أهل العلم الحقيقي ظاهرًا وباطنًا، ففهموا حقيقة الدين، ومن ثم أدركوا كنه التصوف، وصحَّحوا الطريق والطريقة.

وكانت الطريقة النقشبندية -وأضرابها- إحدى هذه الطرق التي كان القرآن والسنة منطلقها وركيزتها، ولكي تعبر عن ولائها المطلق للحقائق الشرعية باتت العبارة المعروفة المشهورة:

"الشريعة هي الذراع الثابت للفرجار" قاعدة غير مكتملة فقد زاد عليها أعلام الطريقة وعدلوها.

فيقول مولانا جلال الدين الرومي:

"إننا مثل الفرجار، قدمنا ثابتة في الشريعة، وقدمنا الأخرى نجول بها عبر اثنتين وسبعين قومًا"[١٧].

"الشريعة كالشمعة؛ تدل على الطريق وتنيره، لكن لا يمكنك عبور الطريق بمجرد وضع شمعة في يدك، كما لا يمكنك السير على الطريق دون شمعة ولكن إذا مابدأت السير على الطريق في ضوء الشريعة، فأنت بالتالي تتبع طريقة".

---

١٧ أي أن ركيزتنا الأساسية التي لا نحيد عنها هي الشريعة، ومع ذلك فقد تتشابه بعض مظاهرنا أو سلوكياتنا مع إحدى هذه الملل الاثنتين والسبعين.

التصوف هو الحرص على تمثُّل الدين ظاهرا وباطنا، وذلك بالتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتخلق بمحاسن الأخلاق الجلية والخفية.

ب. تعريف التصوف

من العسير أن تعبر كلماتنا المحدودة عن حقيقة التصوف ومكنوناته، فلا يستطيع الإنسان أن يدرك التصوف ويشعر به إلا حين يعيشه ويحيى به، ولذلك تنوعت تعاريف التصوف واختلفت عند أولياء الله فكل منهم كان ينطلق في تعريفه من رؤية مختلفة عن الآخرين.

وإنما يتعمق فهم أولياء الله والسائرين في هذا الطريق للتصوف كل بحسب استعداده وقدراته وتلقيه للتجليات والأنوار، ولذلك نرى هؤلاء الأولياء يستوعبون التصوف بطرق مختلفة، ويخضع ذلك تبعاً للتجليات الإلهية التي يعيشونها، ومع ذلك فإن كل تعريف قدمه هؤلاء الأولياء صحيح، ذلك لأنه جاء حسب التجربة الذاتية التي مر بها كل منهم، أما نحن فنحاول أن نصل إلى تعريف عام للتصوف من خلال النظر في هذه التعاريف.

فإذا نظرنا إلى هذه التعريفات المختلفة، نستطيع القول أن التصوف -باعتبار الجوانب المشتركة في هذه التعريفات- إنما هو علم يعمل على إصلاح عالم المؤمنين الداخلي، ليقومه ويصل به إلى الكمال البشري، كما يجعل من هؤلاء الأولياء مثالا للأخلاق الحميدة التي تقربهم إلى الله تعالى، وتوصلهم إلى معرفته ومحبته.

و فيما يلي بعض تعريفات التصوف - فتعريفاته لا حد لها - من تلك التي قدمها لنا أولياء الله كلٌ حسب التجليات الروحانية التي نالها، وهي:

١. التصوف هو الأدب وحسن الخلق:

حسن الخلق هو ذلك الإحسان الذي يحمل الإنسانَ على الاستقامة في الفكر والسلوك عبر تحرير الإيمان من التقليد، حيث يترسخ في القلب شعور المرء دوما بأنه تحت مراقبة الله تعالى، حتى يهمين هذا الشعور على ظاهره وباطنه ويستقر في وجدانه.

يقول أبو الحسين النوري:

«ليس التصوف بالشكل أو بالعلم، التصوف هو الخلق الحسن لا أكثر ولا أقل، فلو كان التصوف شكلاً لناله المرء بالمجاهدة، ولو كان التصوف علماً لناله المرء بالتعلم، و لهذا فلا الشكل ولا العلم وحدهما يوصلان إلى المقصد، التصوف عبارة عن التحلي بأخلاق الله عَزَّ وَجَلَّ».

وهذا التعريف يشير إلى أن التصوف يقوم على أسس وطيدة من الأخلاق.

إن معنى الخلق الحسن إنما هو التخلُّق بأخلاق الرسول، وفى هذا مدح الله تعالى في القرآن الكريم أخلاق النبي في الآية الكريمة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)

وحين سئلت السيدة عائشة ﵂ وأرضاها عن أخلاقه ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن» (مسلم، المسافرين، ١٣٩)

معنى ذلك أن العبد إذا تخلق بأخلاق القرآن واستقام على أحكامه، فإنه يصبح قرآناً حياً، ولا يصل العبد إلى ذروة الخلق الحسن إلا حين يتلو القرآن الكريم بتفكر وتدبر ويتَّبع أحكامه فيحل حلاله ويحرم حرامه.

لقد أَمر اللهُ تعالى سيدنا محمد ﷺ بهداية البشرية وتنويرها، وكان ذلك منذ أن أرسله الله تعالى وحتى قيام الساعة في الأزمنة والأمكنة جميعها. ومن هذا المنطلق انتقلت إلينا كل تفصيلات ودقائق حياته ﷺ، بل حتى الأمور الخاصة والتصرفات الشخصية عبر روايات صحيحة، وسيستمر هذا الانتقال حتى قيام الساعة ببركة الله ولطفه، وبدراسة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام يتبين لنا أنه كان كمال الإنسانية وذروة مكارم الأخلاق. ويبين الرسول ﷺ مهمته بالحديث النبوي:

"إنما بُعثت لأتمم حُسْنَ الأخلاق" (الموطأ، حُسن الخلق، ٨)، وأنه ﷺ كان «الأسوة الحسنة» للإنسانية جمعاء، أي القدوة في الأخلاق.

ويأتي القرآن الكريم على ذكر أخلاق الرسول في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب، ٢١)

وسيظهر الله تعالى حسن الخلق دوما وإلى قيام الساعة بداية من رسولنا عليه الصلاة والسلام ومن بعده عبر ورثة الأنبياء[١٨].

وفي الحديث النبوي الشريف:

"أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"[١٩]

وبهذا يشير عليه الصلاة والسلام إلى أن حسن الخلق إنما هو ثمرة الإيمان وعلامة الكمال، وأن أولياء الله الذين يتخلقون بالأخلاق المحمدية هم الهداة والمرشدون الروحانيون، ويشير أبو محمد الجريري إلى هذه الحقيقة أيضاً عندما يقول:

«التصوف هو تمثل الأخلاق الحسنة والبعد عن الأخلاق الرديئة».

---

١٨ ورثة الأنبياء: العلماء الحقيقيون الذين يرثون الأنبياء وخاصة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ظاهراً وباطناً، من ناحية العلم والعمل والأخلاق.

١٩ أبي داوود، ١٥/ ٤٦٨٢؛ أحمد، جـ٢، ٢٥٠.

فتزيين القلوب بالأخلاق الحميدة والتنزه عن الأخلاق الرديئة للوصول إلى النجاة والسعادة الأبدية عملية ضرورية ولكن تحفها المشقات و المصاعب، وفي ذلك يقول أبو هاشم الصوفي وهو من المتصوفة الأوائل:

«إن إزالة الكِبر المترسِّخ في القلب لهوَ أصعب من الحفر في الجبال بإبرة»

أما أبو بكر الكتاني فيقول:

«التصوف أخلاق، ومن كان أفضل منك في الخُلُق، كان أطهر منك في المعنىً».

والتاريخ الإنساني يزخر بسلوك الأنبياء الأخلاقي المثالي، سلوك أخلاقي لا يضاهيه أي سلوك، ومن أجمل الأمثلة عن هذه الأخلاق العالية التي لا شك فيها هو سلوك سيدنا يوسف، فبعد أن ظلمه إخوته ظلماً بيّنا كان رد سيدنا يوسف عليهم:

﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٢)، وهذا مثال يظهر درجة العفو الكبيرة التي وصل إليها عليه السلام.

إن هدف التصوف هو أن يكون القلب مثل قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام سالماً من الدنيا ومطيعاً لأمر الله، ومثل قلب سيدنا إسماعيل عليه السلام في تسليمه للحق ورضاه بقدر الله تعالى، ومثل قلب

سيدنا أيوب عليه السلام في صبره، ويجب أن يكون حزن المؤمن مثل حزن سيدنا داوود عليه السلام، وفقره مثل فقرِ سيدنا عيسى عليه السلام واستغنائه عن الآخرين.

والمتصوف هو المرء الذي يسعى ليكون قلبُه مثل قلب سيدنا موسى في مناجاته حين كان قلبه فياضاً بالحماسة والاشتياق، وأن يكون مخلصاً كإخلاص حبيبنا وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أي أن يسعى ليكون محباً ومخلصاً لربه تعالى.

ويقول أبو حفص الحداد:

«يمكن تعريف التصوف بأنه أسمى خلاصة للخلق الحسن» عندما قال أن التصوف هو الأدب.

وعن الأدب يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اعلم يا سيدي أن الأدب هو تلك الروح الكامنة داخل الإنسان، الأدب عند رجال الله هو نور عيونهم وأفئدتهم، فإذا ما كنت تريد سحق رأس الشيطان، فافتح عينيك لترى أن الأدب يقهر الشيطان، وإذا لم يكن عند الإنسان أدب، فهو ليس بإنسان أبدا، لأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو الأدب».

وثمة بيت شعري معناه:

سأل عقلي قلبي: «ما الإيمان؟»،

فهمس قلبي لعقلي: «الإيمان هو الأدب ».

ونظم شاعر آخر بيتاً جميلاً في «الأدب» ما ترجمته:

الأدب تاج من نور الباري فالبسه تأمن من كل بَلاء

وبهذا الاعتبار نجد أن اللوحة التي تحمل عبارة «أدب يا هو» في التكايا والزوايا وأماكن الخلوات القديمة[٢٠] واحدة من أهم اللوحات الخطية التي تحث على التيقظ والانتباه.

٢. التصوف هو تزكية النفس وتطهير القلب:

أتى الإنسان إلى هذا العالم لكي يُمتحن في عبوديته، ولذلك أُبتلي بالنفس وشهواتها وأهوائها التي تلازمه حتى الموت، وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى درجات الولاية، فإن الثلاثي (الدنيا والنفس والشيطان) يقف له دائماً بالمرصاد من خلال الحيل والوساوس والخداع، ولذلك كانت العبودية تبدأ بالتخلص من هذه المهلكات، ثم النجاة من مغريات هذا العالم الفاني، والتحلي بالتقوى، والتوجه إلى الحق تعالى في نهاية المطاف.

ولهذا كان من الضروري تزكية النفس وتطهير القلب للتخلص من الفجور الموجود في فطرة الإنسان، وزرع بذور التقوى، لذلك فكل إنسان مكلَّف بحسب استعداده وقدرته بمعرفة الحق تعالى، والارتقاء بهذه المعرفة إلى مرحلة العرفان،

٢٠ هذا البيان هو عبارة عن تنبيه ندائي من أجل مراعاة الأدب، وهو في الوقت ذاته توسل يشابه معناه مقولة «يا إلهي! الطف وامنحنا الادب!».

وتسبيح المولى وشكره عبر العمل الصالح، وهذا هو معنى «العبودية» باختصار، أما الوصول إلى حقيقة العبودية فمرتبط بتزكية النفس وتطهير القلب، أي بتجاوز عقبة النفس وتحليتها بالأحاسيس الراقية، ولا يمكن نيل شرف درجة «الوصول إلى الله»[٢١] و«اللقاء مع الله»[٢٢] إلا على هذه الصورة.

وجوهر القلب هو «موضع نظر الله» في هذا العالم، أي إن جوهر القلب ينال شرفاً رفيعاً بتجلي نظرات الله تعالى، وكما أنه لا يجلس على عرش القصر إلا السلطان، فلا ينبغي أن يكون في القلب الخاضع لمملكة الجسد غير الله تعالى، فلابد من تطهير القلب بإزالة الأفكار النفسانية والميول الخبيثة والتعلق بما سوى الله تعالى، وإلا أُغلق الطريق أمام القلب للوصول إلى الألطاف الإلهية، إلا أن هذا لا يعني أن القلب لابد أن يخلو عن محبة الآخرين، فحين يستطيع المرء تزكية نفسه وتطهير قلبه ليصير قلبا سليما، فإنه يتحرر من محبة غير الله، في حين لا يستطيع الآخرون أن يزيلوا تماماً من قلوبهم محبة المال والأولاد وما إلى ذلك مع اختلاف درجات هذه المحبة، فمثل هذه الأنواع من المحبة في الحقيقة مشروعة ما لم تتجاوز حداً معيناً.

---

٢١ الوصول إلى الله: الوصول إلى الله العلي بالقلب في الدنيا.

٢٢ اللقاء مع الله: رؤية جمال ربنا في الآخرة

ويكفي النظر إلى موقع القلب في الحياة المادية والمعنوية لإدراك أهمية تطهيره، وقد عرض النبي ﷺ أهمية القلب في حياة الإنسان حين قال:

"... أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ" (البخاري، الإيمان، ٣٩)

ويذكر مولانا جلال الدين الرومي، قدس الله سرَّه، أنه من العبث السعي لملءِ كيسٍ ما لم يُغلق الثقب في أسفله، وهكذا هي الأعمال، فالجليُّ أنه مع تطهير القلب تصبح هذه الأعمال وسيلة لسعادة المرء، فالأعمال بالنيات، والنية هي إحدى أعمال القلب، ويعد إصلاح النية وإخلاصها شرطاً في هذا السياق.

إلا أن حالة تزكية القلب هذه إنما ينالها المرء على يد أربابها بالتربية القلبية، فغاية أولياء الله تعالى من تربية القلب هي استشعاره بأنه دائماً مع الله أي بلوغ مرتبة (الإحسان)، وبذلك يصبح هذا القلب «قلباً حياً»، ولكي يصل القلب إلى هذا النضج، لابد من تطهيره مما سوى الله.

وحين يصل القلب إلى هذا اللطف ويتخلص من أكداره، تتكشف له الحقائق الجليلة والعميقة، وتتجلى عليه الأسماء والأسرار الإلهية، وهكذا يعرف المرء الله بقلبه ويرتقي بعلمه إلى حالة العرفان.

ولا يمكن للنجاة يوم الحساب إلا بالمثول أمام الله تعالى بقلب سليم، أي قلب مطهّر من كل الأمراض المعنوية، ومليء بالمحبة الإلهية، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه حين قال:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُون إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيم﴾

(الشعراء، ٨٨-٨٩)

ومن جانب آخر، يذكر القرآن الكريم أن الذين لا يطهّرون أنفسهم، وتقسوا قلوبهم لبعدها عن ذكر الله، مصيرهم الهلاك في نهاية المطاف:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

﴿...فَوَيْلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(الزمر، ٢٢)

ولكم هو معبر كلام أبو سعيد الخراز في ضوء هذه الآيات الكريمة:

«الإنسان الكامل هو من طهر الله قلبه وملأه نورا وعرفانا ».

٣. التصوف حرب معنوية لا هوادة فيها:

يعود هذا التعريف الى الشيخ جُنيد البغدادي، ويعني به أن المتصوف لا ينفك عن مجاهدة نفسه طوال العمر، والجهاد ضد النفس هو الامتناع عن الرغبات غير المشروعة.

والحروب عادة تبدأ وتنتهي في زمان ومكان محددين، إلا أن المجاهدة ضد النفس تستدعي مجاهدتها طوال العمر دون انقطاع. حيث يقول الله ﷻ الآية الكريمة:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٩)

ويأمر الحق تعالى عبده أمام غفلة النفس وحيلها باليقظة الدائمة والذكر المستمر، فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

وقد ذكر الرسول أن تزكية النفس أصعب من مجاهدة الكفار:

قال رسول الله ﷺ لمن معه عقب عودته من غزوة تبوك المعروفة باسم غزوة العسرة: "**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**". قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: "**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**" (٢٣)

ويعطي الباحث المعاصر روجيه غارودي أهمية خاصة لتوازن الجهاد الصغير والكبير في الإسلام؛ إذ يقول: «التصوف شكل من

---

٢٣ البيهقي، الزهد الكبير، ١٦٥، ١٩٩٦؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٧٣/ ٦١٠٧.

أشكال التربية المعنوية الإسلامية، وهو ما يسمى بالجهاد الداخلي أي الوقوف في وجه كل نوع من أنواع الرغبات التي تُبعِد الإنسان عن الغاية من خلقه، وتوقِعه فريسة للنفس، ويُعرف هذا بالجهاد الأكبر في الاصطلاح الإسلامي، أما الجهاد الأصغر فهو الجهاد ضد كل أنواع السلطة والجاه والعلم الخاطئ الذي يبعد المسلمين عن طريق الله ويبقي المرء في حالة انسجام واتحاد مع الطريق المؤدي إلى الله تعالى، والاتزان بين هذين النوعين من الجهاد هو الذي يكفل السعادة والسلامة للفرد والمجتمع»[٢٤].

٤. التصوف هو الإخلاص:

التصوف هو الإخلاص لله تعالى، و«الإخلاص» في الاصطلاح الديني هو العمل ابتغاء مرضاة الله وحده دون أن تكون هناك أي غاية سواه، وتطهير القلب من جميع الآمال ما عدا رضا الله تعالى هي فضيلة كبرى أُمر بها المسلمون.

إن كل ما أمر الله ﷻ به العبد لنيل رضاه يمسى عديم النفع لا يجنى منه صاحبه سوى التعب والمعاناة، إذا أشرك مع الله تعالى غيره، أو شابه الرياء، وبهذا يظهر أن «الإخلاص» هو أهم الشروط وأساسها لقبول الأعمال أمام الله ﷻ.

---

٢٤ انظر: روجيه غارودي، وعود الإسلام، ص٤٧.

والإخلاص هو حماية القلب من جميع أنواع الشهوات والأهواء الدنيوية في سبيل الاقتراب من الله تعالى. وبالإخلاص يحظى العبد بأكبر نعمة ألا وهي رضاه تعالى.

إن ما يريده الله تعالى من عباده هو أن يعملوا بإخلاص سعياً لرضائه تعالى، والآيتان التاليتان توضحان ذلك:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر، ٢)

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر، ١١)

وقد ذكر الله ﷻ الموقف الذي طُرد فيه إبليس من الحضرة الإلهية حين قال:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر، ٣٩-٤٠)

فالتصوف هو ربط الأمور كلها بالله، وتلقي كل شيء منه، والتخلص من الإعجاب بالنفس، وعلى الإنسان مهما كان حاله ومقامه أن يتواضع ويعرف قدره وألا ينسى وجود من هو أعلى منه، إذ يقول الله ﷻ في كتابه بعد أن انتصر المسلمون في معركة بدر، مخاطباً سيدنا محمدا ﷺ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ

اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٥]
(الأنفال، ١٧)

لذلك يجب على الإنسان دائماً أن يحس بعجزه وعبوديته، وأن يعلم أن كل أنواع النعمة والنصر والتوفيق إنما هي من ألطاف الله ﷻ، فإن لم يعلم الإنسان ذلك كانت أجور أعماله منقوصة أو صارت هباءاً منثوراً.

ويروي أبو هريرة ﵁ الحديث الذي يبين عاقبة المرء حين يؤدي أعماله خالية من الإخلاص، ويخالطها الإعجاب بالنفس والهوى، حيث قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

"إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن

٢٥ أخذ رسول الله ﷺ أثناء المعركة قبضة من تراب ونثرها على جيش قريش، فغطى هذا التراب بإذن الله أعين الكفار وهذا ما أصابهم بالدهشة، وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد هذه الحادثة.

ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار "[٢٦]

ويقول مولانا جلال الدين الرومي مخاطباً ذلك الذى يعبد الله دون إخلاص:

«أيها الغافل! كم أرجو أن توجه وجهك بإخلاص للحق تعالى حين تنزل ساجداً له، وكم أرجو أن تعرف معنى (سبحان ربي الأعلى)، فالسجدة ليست سجدة البدن فحسب بل هي سجدة القلب أيضاً».

إن العبادات إذا أقيمت دون إخلاص لابد أن تشوبها الأهواء المبطَّنة والأدران المعنوية، والسر في صفاء العبادات وترقيتها إنما هو الإخلاص، فالعمل دون إخلاص لا يجني منه العبد شيئاً، فمثلاً الصلاة التي هي في المرتبة الثانية بعد الإيمان إن لم يُراعى فيها الإخلاص تعرِّض العبد إلى هذا العتاب المخيف من الله في الآية الكريمة التالية:

---

٢٦ مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (الماعون، ٤-٦)

ويقول جنيد البغدادي، قدس الله سرَّه:

«الإخلاص هو تصفية العمل من الكَدرِ الروحي».

ويقول أحد الأولياء:

«ادعاء الإخلاص نوع خفي من أنواع عدم الإخلاص»، حيث إن أكبر خطر على الإخلاص أن يرى المؤمن نفسه تقياً.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﵁ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ:

"أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْعَمَلُ الْقَلِيلُ"[٢٧]

ويقول في حديث آخر: **"إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"**[٢٨]

٥. التصوف هو الاستقامة:

التصوف هو أن يحيى المرء باستقامة، والاستقامة هي التمسك بالكتاب والسنة، وفهم التعليمات الإلهية والنبوية فهماً نابعاً من

---

٢٧ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤١/ ٧٨٤٤؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٢٤٤؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٩، ١٧٤.

٢٨ مسلم، البر، ٣٤/ ٢٥٦٤.

القلب، والحياة بشغف في ظلال هذه التعليمات، فالتصوف هو وصول القلب إلى أعلى حالات السعادة بالعيش في روحانيات الكتاب والسنة، ويقول الحق تعالى في الآية الكريمة مخاطباً النبي وأمته من بعده:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود، ١١٢)

وكان الدافع إلى «شيبتني هود...»[٢٩] في حديث الرسول ﷺ هو ما ورد في هذا الخطاب الإلهي الذي شرحه المفسرون[٣٠] على النحو الآتي: «يا أيها النبي! ليكن سلوكك كما تفرض عليك أخلاق القرآن وأحكامه، وكن مثالاً حياً للاستقامة كي لا يكون موضع للشبهة والتردد في شخصك! واصرف النظر عما يقوله المشركون والمنافقون، ودعهم إلى الله! واستقم كما أُمرت في مهماتك العامة والخاصة، ولا تبتعد عن الصراط المستقيم! وثابر على تبليغ ما يوحى إليك وتنفيذِه وتطبيقه مهما كان ثقيلاً! فالله مُعينك.»[٣١]

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فِي قَوْلِ الله تَعَالَى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾:

٢٩ الترمذي، التفسير، ٦/٥٦.

٣٠ انظر: القرطبي، الجامع، جـ٩، ١٠٧.

٣١ انظر: المفسر التركي أَلْماليلي محمد حمدي يَزِيرْ، حق ديني قرآن ديلي (دين الحق ولسان القرآن)، جـ٤، ٢٨٢٩-٢٨٣٠.

«مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ كانت أَشَدَّ وَلَا أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ»[٣٢]

كان هذا الخطاب موجهاً مباشرةً إليه ﷺ، ولم يكن مصدر الشيب في هذه الآية خوفاً على نفسه من التمسك بالاستقامة، فالآية الكريمة:

﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس، ١-٤)

نزلت فيه وتأييداً له عليه الصلاة والسلام، لكن السبب الحقيقي الذي شيبه وأثر فيه من الأعماق، هو القلق على المؤمنين من تطبيق هذا الأمر الإلهي.

فلا يمكن لأي طريق بعد بعثة النبي ﷺ أن يوصل الإنسان إلى الله سوى طريق الهداية الذي رسمه رسول الله ﷺ، فقد ربط الله تعالى محبته ومغفرته بإطاعة المسلمين للنبي ﷺ، وهذا ما توضحه الآيات الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران، ٣١-٣٢)

---

٣٢ النووي، شرح صحيح مسلم، جـ ٢، ص٩.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور، ٥٤)

ويؤيِّد ذو النون المصري قدس الله سرَّه هذه الحقيقة بقوله:

«إن من يطبق سنة حبيب الله تعالى في أخلاقه وأفعاله وحركاته، يؤكِّد حبه للحق تعالى».

أما أبو يزيد البسطامي، قدس الله سرَّه، فيقول:

«لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى رَجُلٍ أُعْطِيَ مِنَ الْكَرَامَاتِ حَتَّى تَرَبَّعَ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُوهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ، وَأَدَاءِ الشَّرِيعَةِ (وإلا فإن حاله ليست كرامة بل استدراج)[٣٣] »[٣٤]

وقد ذكر القرآن الكريم أولئك الذين يستطيعون أن يسلكوا طريق أهل الاستقامة (الصراط المستقيم) بالصورة الصحيحة:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

---

٣٣ البيهقي، الشُعب، جـ٣، ٣٠٤؛ القشيري، الرسالة، ص٥٨.

٣٤ الاستدراج هو عكس الكرامة، وهي الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية. وهذه الأحوال إنما هي امتحان إلهي يأخذهم شيئاً فشيئاً إلى الهلاك.

وكما هو ظاهر في الآية الكريمة، فإن الصراط المستقيم طريق خاص بأشخاص مُحددين، وأساس الاستقامة هو الإيمان والتقوى وهما يقعان في القلب، وبناءاً على هذا كانت الاستقامة توحيد البدن مع القلب الذي يحوي الإيمان والتقوى، أي أن تكون الأعمال الظاهرة مطابقة لمستوى التقوى في القلب، إن الإيمان والإخلاص والاعتدال في القلب تحفظُ الاستقامةَ وتضمن دوامها.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

"لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ" (٣٥)

وعن سفيان بن عبد الله الثَّقفيِّ، قال: قلت:

«يَا رَسُولَ الله، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ» وفي حديث أَبي أسامة «غَيْرَكَ» قال:

"قُلْ: آمَنْتُ بِالله، فَاسْتَقِمْ" (مسلم، الإيمان، ٦٢)

وليس ثمة أمر إلهي أصعب من المحافظة على الاستقامة على الصورة التي يريدها الله، فالمحافظة عليها مقام عالٍ، والاستقامة هي المحافظة على العبادات باعتدال دون الوقوع في الإفراط والتفريط مع الثبات على طريق الله، وتنفيذ أوامره بالشكل الأمثل كما وردت، كلٌ حسب طاقته، لهذا السبب كانت الاستقامة أعظم الكرامات.

---

٣٥ أحمد بن حنبل، مسند، جـ ٣، ١٩٨؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ١، ٩٧.

وشعار أولياء الله هو الاستقامة، والاستقامة الحقيقية هي السير في طريق النور الذي خطَّه فخر الكائنات ﷺ.

وقد شرح مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة خير شرح حين قال:

«طالما هذه الروح في جسدي سأبقى عبداً للقرآن، وأسير على خطى سيدي محمد المختار، وإذا ما نقل أي شخصٍ عني غير هذا الكلام فإنني منه براء».

«إن أي امرئٍ يذهب إلى مائدة غير مائدة النبي ﷺ، فسيأكل الشيطان معه من الوعاء نفسه، إذ إن من يختار مائدة غير مائدة العرفان تلك، فستمزِّق العظام حنجرته».

٦. التصوف هو الرضا والتسليم لله عز وجل:

التسليم هو الخضوع المطلق لله تعالى والطاعة والاستسلام له سبحانه والتسليم لأوامره دون اعتراض، ومن هذا الجذر اللغوي نفسه اشتقت كلمة "الإسلام"، والتصوف يزرع في الأفئدة الشعورَ بالرضا والتسليم للحق تعالى كي يتمكن العبد من العيش على أساس الاستقامة الإلهية والاقتراب من ربه أكثر فأكثر مع كل نفَس يتنفسه.

إن الرضا والتسليم للحق تعالى هما اللذان يخففان من تأثير الآلام والمصائب والمحن التي تُغرِق هذا العالم الفاني، حتى إن

المصائب ببركة الرضا والتسليم لله تصير كأن لم تكن، وتتحول الابتلاءات إلى مسرَّات حين يتلقاها العبد على أنها منحة من رب العالمين له.

التسليم هو خضوع العبد لأوامر الله تعالى بكل سعادة، وقبوله لكل تجليات القدر بالرضا العميق بعد الأخذ بالأسباب، وخير مثال على التسليم هو امتثال سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمر ربه وتقديم فلذة كبده قرباناً، وتسليم إسماعيل عليه السلام نفسه للتقدير الإلهي بكل رضا، وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً بهذين النبيين للناس أجمعين في التسليم:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (الصافات، ١٠٣)

وبتسليمهما هذا نالا ثناء الله عليهما وصارت الأضحية ركناً مستقلاً من أركان العبادات، وستبقى عبادة الحج نموذجا ونبراسا هاديا للأجيال القادمة إلى قيام الساعة على تسليم العبد لله تعالى وخضوعه بين يديه.

فينبغي على العبد إذا استسلم للحق تعالى في الأوامر والنواهي، ورضي بما يقدِّره الله له، عليه أن يصبر على المشقات والابتلاءات، فالابتلاءات هي مفتاح الكمال.

ويقول الشقيق البلخي:

«لو علم العبد ما يتلو المحن من منح لما أراد النجاة منها».

ولذلك لما عرف أولياء الله هذه الحكمة نظروا إلى الغمِّ والسرور بالعين نفسها، وتجاوزوا السعادة المفرطة والحزن العميق اللذين يوقِعان المرء في مصيدة النفس، وارتقوا إلى مقام الرضا والتسليم.

ومن أوجه التسليمِ العشقُ والمحبةُ الإلهية، فالمحبُّ يَسعَد بكل ما يأتي من الحبيب، ويسعى جاهداً إلى إظهار حميميته وإثباتها.

وربما هذا هو السبب الذي دفع بأبي علي الروزباري لتعريف التصوف على أنه:

«لزوم المرء باب الحبيب مستسلما له ولو طرده آلاف المرات».

إن العبد الذي يملأ العشقُ قلبَه يُقبِل راضيا على كل ما يأتيه من ربه على قدر محبته له، فبتسليم إبراهيم عليه السلام لله وتجليات عشقه له تحولت النار الدنيوية إلى روضة غنَّاء، أما يعقوب عليه السلام فقد نجح في التخفيف من ألم الفراق من خلال رضاه وتسليمه للتقدير الإلهي، وبقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف، ١٨)

ولهذا جعل أهل التصوف طريق الاستسلامَ لله - وهو طريق الأنبياء - محور طريقتهم، وكما تقول رابعة العدوية، قدس الله سرَّها: «إن المحب للحبيب مطيع».

أي إن التسليم هو الطاعة التي تنبعث من الحب، وتنبع من القلب.

لقد وصل الصحابة الكرام إلى مرحلة الكمال البشري بحبِّهم وارتباطهم وطاعتهم لنبينا ﷺ، حتى غدوا نماذج حية للأمة كلها يعلمونها كيف يمتزج الحب لله بالخضوع والتسليم المطلق له سبحانه من دون أي اعتراض.

٧. تعاريف أخرى للتصوف:

إن الإسلام يهدف لتربية إنسان مثالي كامل، وهذا الهدف يتطلب أن يعيش المرءُ الإسلامَ ظاهرا وباطنا، بحيث يتحد الجسد مع الروح وينسجم العقل مع القلب.

والتصوف: هو السبيل للعيش على هذه الحال، فالهدف الفريد للتصوف تحويل الإنسان إلى إنسان مسلم صالح يرضى الله تعالى عنه، وهذا ما يوجب على المرء المسلم أن يسعى ليحيا حياته بإدراك الإسلام ضمن تكامل «الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة».

فالتصوف: هو وجهة الدين الداخلية وجوهره وعمقه الروحي، فهو من هذا الجانب مثل اللاكتوز الموجود في الحليب، فحين نهمل روح الدين وجوهره لا تبقى إلا مجموعة من القواعد الفقهية الجامدة، وفي المقابل ثمة أشخاص لم يفهموا حقيقة التصوف حين ردوا كل أمر إلى الأحكام الباطنية، ولم يلتزموا بالأحكام الظاهرية، خاصة في هذه الأيام مع وجود من يدَّعون وصولهم إلى النشوة الصوفية، ناهيك عن أولئك الذين يأخذون عبارة «لا ضير في عملك ما دام قلبك طاهراً» شعاراً لهم، ويطلقون

العِنان لحياتهم النفسانية، ويسعون إلى إظهار مفهوم التصوف على هذا النحو البعيد عن مفهوم التصوف الحقيقي، والمؤسف أن هناك أشخاصًا في أيامنا هذه بعيدون عن روح «المثنوي الشريف» يهملون الجانب المتعلق بالتقوى في المولوية، ويحاولون إظهار السماع[٣٦] -الذي هو في الأصل ذكرٌ لله تعالى- على أنه موروث شعبي ومجلس للموسيقى.

وكما أن رسول الله ﷺ كان أتقانا لله تعالى وأقربنا إليه وقام بالتكاليف والمسؤوليات الشرعية حتى آخر نفَس تنفسه، فكذلك ينبغي على كل مسلم يقتدي بهذا النبي أن ينجز مهامه ومسؤولياته الشرعية مهما كان موقعه ومقامه الروحاني، فالشريعة التي نصفها أنها الأحكام الظاهرية للإسلام هي مثل الهيكل العظمي الذي يعتمد عليه الجسد، لكن المظاهر الدينية التي هي عبارة عن هيكل فقط تقدِّم الإسلام على أنه دينٌ منفّر جاف وناقص، يفتقر إلى الروح والحيوية، وهناك بالفعل من يريد عن عمد أن يظهره على هذا النحو.

التصوف: هو فهم الإسلام بالطريقة التي فهمها رسول الله وصحابته، تلك الطريقة المليئة بالفيوضات والروحانيات، ثم السعي للعيش على أساس هذه الطريقة بالحب والشوق.

٣٦ مصطلح عربي الأصل، استعمله المتصوفة للدلالة على الإنشاد الديني والذي يكون ضمن مجالسهم العلمية أو الروحية (المترجم).

التصوف: هو السعي والعمل على تنظيم الحياة على أساس الكتاب والسنة.

التصوف: هو نظام لتطهير النفس عن كل شوائبها؛ وفن الوصول بها إلى التقوى عبر الحذر من كل شيء يُبعد المرءَ عن الله تعالى، والتصوف هو شعور المرء بوجوده في عالم الامتحان الدنيوي، وهو الذي يوضح قواعد العبودية لله تعالى، وكل ذلك بالفيوضات والروحانيات التي تتغلغل في عروق المرء، فالتصوف هو سعي المرء كي يكون عبداً صالحاً لله تعالى من خلال معرفة الله ومحبته.

التصوف: هو معرفة الحق تعالى بالقلب، والارتواء من ينبوع العبودية لله تعالى، والارتقاء بالإيمان إلى أفق عالٍ كما هو حال الإحسان.

التصوف: هو رحلة مقدسة توصِل العبدَ إلى الله تعالى عبر المحبة والصحبة الحقيقية.

التصوف: هو تطهير الفؤاد مما سوى الله تعالى من خلال الذكر الدائم.

التصوف: هو فن البقاء حبيباً لله تعالى من خلال الرضا بقضائه في كل زمان ومكان، وهو مهارة الإبقاء على توازن الفؤاد أمام المد والجزر والظروف المتغيرة والمفاجآت، ونسيان الشكوى والتذمر ليكون العبد عبداً صالحاً على الدوام.

التصوف: هو تعليم الزهد، وتخليص الفؤاد من الرغبات النفسانية المتقلبة في الدنيا عبر إدراك أن الحياة الأساسية هي الحياة في الآخرة.

التصوف: هو تكريس الوقت على أكثر الأشياء قيمةً.

التصوف: هو مسؤولية يحملها أولئك الربانيين تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين، فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالشفقة والرحمة والمحبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، لذلك يمكننا القول أن «التصوف هو طريق الخدمة الإسلامية».

وخلاصة ما فهمناه عن التصوف وما نريد إيصاله، أن التصوف معرفة رسول الله ﷺ عن قرب وذلك من خلال محبته، والتخلق بأخلاقه الرفيعة، والسعي لتمثُّل الإسلام بروحانيته على أجمل صورة، والتصوف هو «حياة التقوى» التي عاشها رسول الله ﷺ وصحابته مضمخة بالحب لله تعالى.

أما ما بقي خارج ذلك ولم يأخذ جوهره ومعياره من القرآن والسنة فهو باطل مهما عزا نفسه للتصوف.

وفي ضوء التعاريف المذكورة للتصوف يمكننا أن نخلص إلى أن:

التصوف: هو السعي لإقامة الدين، والحياة به وفق روحه وأصوله، وذلك من خلال التخلي والتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتحلي واكتساب الأخلاق والصفات الحميدة، وبهذه

الطريقة يصل المؤمن إلى فهم شامل للأحداث المادية والمعنوية، وتنفتح بصيرته على الأسرار والألغاز الكبيرة التي لا يمكن أن يصل إليها عبر العقل وحده.

والتصوف: هو الصراع للتغلب على النفس التي تمثل حجر عثرة أمام ما يطلبه القلب من اللذات الروحانية اللانهائية.

والتصوف: من ناحية أخرى هو علمٌ يبيِّن كيف يحبس الجسدُ الروحَ، ويمنعها عبر الميول النفسانية من استيعاب الحقائق والحكم من وراء الأحداث، وهو علم يسمح للروح باكتشاف العِبر والحِكم التي تتجاوز حدود الإدراك، ومشاهدتها من منظور العارفين.

ولندع نتيجة تعريفات التصوف إلى "منظومة التصوف" المشهورة التي نظمها الشيخ إبراهيم أفندي شيخ تكية آق سراى اولانلر ومن خلال شرح قصيدته المشهورة هذه:

أي إن التصوف في البداية هو التجرد من الوجود المادي، وإنكار الوجود في نفس المرء، أي تسليم إرادته للحق تعالى، أما التصوف في النهاية فهو الفوز بالفضائل الإلهية، حتى يصير المتصوف سلطاناً في قلوب الناس.

التصوف كطريقة: هو أن يكون الصوفي مجهولاً بين الناس، لا يأبه له أحد، أما في الحقيقة فهو ضيف في قصر الأسرار الإلهية

مطلع على خفايا الأمور ومآلات الأحداث.

التصوف: هو الخلاص من الألبسة والأقفاص الفانية المصنوعة من الطين والماء، وبهذا يصبح المرء إنساناً طاهراً يشع منه النور الإلهي.

التصوف: هو إيقاد شمعة الفؤاد بالنور الإلهي، لأن التصوف هو الاحتراق بالعشق الإلهي.

التصوف: هو وجوب تجرد العبد من الإعجاب بالنفس والالتفات للناس، وأن يكون المرء من أهل الشريعة والإيمان الحقيقي.

التصوف: أن تكون عارفا بسنن الله في الكون، حتى لا تكون من أهل الهم والكدر.

التصوف: هو معرفة وإدراك الأسرار والتجليات والحكم الإلهية، وهذا هو العلاج لأصحاب الهموم.

التصوف: هو فك طلسم الجسد بمفتاح الاسم، التصوف هو خراب هذا المبنى العامر الفاني تماما.

التصوف: هو تحويل الصوفي مقاله إلى حال، فيحيي بحاله ومقاله معا قلوب الناس دائماً.

التصوف: هو الاطلاع على علوم التعبير والتأويل من خلال سبر الأعماق، وبهذا تُعرف الأسرار الإلهية الموجودة في الإنسان

والكائنات والقرآن والسنة، والتصوف أيضاً هو أن تكون سرّا من أسرار الله في الفؤاد

التصوف: هو أن تكون واعياً وغائباً داخل حيرة ودهشة كبيرة أمام عظمة الله وقدرته وجماله، لأن التصوف هو الإعجاب بأسرار الحق تعالى اللانهائية.

التصوف: هو إخراج كل شيء من قصر الفؤاد وبقاء الله وحده فيه، لأن التصوف هو أن يكون قلب المؤمن عرشاً لله أي ذاكراً لله دائماً.

التصوف: هو بلوغ الشرق والغرب مع كل نَفَس، أي التفكير بأهل الإيمان هناك، ومشاركتهم سعادتهم وحزنهم، وخدمة أصحاب الحاجة، أي إن التصوف هو النظر في حال الناس كلهم والاهتمام بهم.

التصوف: هو رؤية الحق تعالى في كل ذرة من ذرات الكون، فالتصوف هو أن يكون الصوفي كالشمس التي تنير العالم.

التصوف: هو فهم لغات العالم كلها، يعني فهم حالة كل شخص، أي إن التصوف هو أن تكون حاكماً لعالم العقل مثل حكم سليمان.

التصوف: هو حمل القرآن الكريم الذي هو أمانة إلهية على عاتق الإنسان، وحمل المسؤولية الناتجة عنها بجدية ورغبة؛ التصوف هو نيل الآيات التي تبشر بالمغفرة الإلهية.

التصوف: هو الرحمة بالخلق والشفقة عليهم والدعاء للكائنات كلها بـ(اسم الله الأعظم)، فبالتصوف يكون الصوفي قرآنا حيا ورحمة للعالمين.

التصوف: هو التوجه للحق تعالى في كل حال، وأن يكون الصوفي في خدمة الخلق يهون عليهم كل أمر عسير.

التصوف: هو جعل فؤادك مكاناً للعلم الإلهي، أي امتلاك العلم اللدنِّي، فالتصوف إذاً تحول حال الصوفي الذي ما هو إلا قطرة واحدة إلى بحر واسع عظيم.

التصوف: هو إحراق الأنانية بنيران (لا إله)، والتصوف هو أن تكون إنساناً كاملاً بنور كلمة (إلا الله).

التصوف: هو دعوة الناس إلى طريق الحق تعالى بآية ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**﴾ (الرعد، ٤٣)، وهو السعادة والطمأنينة بمآل ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (الفجر، ٢٨).

التصوف: هو الإحساس بالموت والبعث ألف مرة في كلِّ يوم، حتى تصير روحاً للعالم كله وسببا لإحياء الأفئدة الأخرى.

التصوف: هو إفناء الإنسان لنفسه في وجود الله تعالى، وإخفاء المرء نفسه بالقرب من الله ﷻ الذي تجلى في رحلة المعراج واتضح في الآية الكريمة:

﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ (النجم، ٩)

التصوف: هو إعطاء الروح للحبيب والنجاة من كل أنواع الأَسْر الفانية، والتصوف من هذه الناحية هو أن تكون روح الحبيب حقاً. أي أن تكون محبوباً أيضاً من طرف الحبيب.

يا إبراهيم! **التصوف**، في الأصل هو أن تكون عبداً لله تعالى، لهذا فالتصوف هو أن تكون شريعة محمد ﷺ دليلاً في الفؤاد.

إن موضوع التصوف واسع وعميق سعة البحر وعمقه، فالتصوف يهتم بكل شيء له علاقة بنفس الإنسان وروحه.

ت. موضوع التصوف:

لقد تنوعت الطرائق التي تتناول كنه التصوف، وتعددت الوسائل التي تحاول الوصول إلى حقيقته، فازدادت زوايا النظر للتصوف عمقا واتساعا؛ لاسيما وأن التصوف مهتم بكل ما يمس الروح والنفس، وهما من أسرار الله في خلقه، فالتصوف -بذلك- عميقة أغواره كالبحر، رفيعة أسراره كالسماء، عميم نفعه وانتشاره كالمطر؛ يهطل من أعلى مزن في طبقات الجو، فيعم مساحات شاسعة من الأرض جبالاً وسهولاً ووديانًا، وينفذ إلى أعماقها بعد أن يسقي مَن على سطحها زرعًا وضرعًا وإنسانًا. كذلك التصوف وموضوعاته التي تشبه في تنوعها قطرات المطر في تواترها؛ لا حصر لها ولا عدد.

فجوانب التصوف تشمل كلَّ خطوة يخطوها الإنسان في السعي إلى ربه، وكلَّ درجة يرتقيها في المعراج إلى مولاه، وكلَّ خلجة تعانيها نفسه في الصراع مع معوقات طريقه، وكلَّ صعقة

تصيب حواسه في سبيل الخلاص من جواذب الدنيا، وكلَّ عالَم تعاينه روحُه في مدارج الوصول، وكلَّ شعور يحس به في ارتقائه معارج القبول، وكل المخلوقات التي ارتبط بها نفسًا وروحًا في هذا الكون؛ حتى كان ارتباطه الأوحد برب العوالم كلها الأحد الصمد، وتحقيق العبودية له وحده تعالى، وتمام معرفته سبحانه.

وإذا كان الخوض في هذا السبيل ضربا من المستحيل فلا أقلَّ من أن نرشف من البحر المحيط رشفة، أو أن تمس أقدامنا مياه شواطئه، أو تلامس أفكارنا سواحل مواطئة، وليغترف كل منا غرفة بيديه.

وعلى سبيل البدء، فإن موضوع التصوف يتضمن مراحلَ وأحوالا وأهوالا يجتازها السالك في الوصول إلى ربه؛ سعيًا نحو هوية الإنسان الكامل؛ وتحقيقًا لمعنى العبودية المطلقة، عبر تزكية النفس وتطهير القلب.

وبمعنى آخر: فإن التصوف يرمي للوصول بالإنسان إلى السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ليحياها بجسده وروحه، ويحقق معناها بسلوكه وشعوره، وينغمس فيها ظاهرًا وباطنًا، فتنعكس على صورته وسيرته، كما تتجلى في روحه وسريرته، ويكون ذلك - كما أسلفنا - عبر تزكية النفس وتطهير القلب؛ ليتذوق الإنسان لذة الشعور بالإحسان، ويحقق التكامل بين الشعور وبين السلوك، وذلك بالتخلُّق والتحقُّق.

التخلُّق بالأخلاق التي أرادها الله لعباده سلوكًا وشعورًا وحياة، والتحقُّق واليقين بعين البصر والبصيرة مما عند الله، ولقد قيل: (إن للعارفين قلوبا ترى ما لا يراه المبصرون).

وعليه، فإن أحد أبرز موضوعات التصوف هو أصول الوصول، وطرائق القبول، وكذلك إدراك الأسرار، ومعرفة الخفايا وما وراء الأستار، وكل ما هو مكنوز في خزائن أسماء الله وصفاته؛ متجليًا في كونه ومخلوقاته.

وفي ذلك الإطار، يتناول التصوف أحوال السالكين التي يجتازونها، وهي أحوال خاصة ومقامات روحانية عليا؛ تُعتبر من وسائل المعرفة والإيمان والتربية والوصول؛ مثل الكشف والإلهام والمشاهدة المعنوية والوجد والعشق....

وهي أحوال لها ضوابطها ومقاماتها وتأثيرها في النفس والروح والقلب والوجدان، والظاهر والباطن.

والخلاصة: أن موضوع التصوف هو معرفة الله.

معرفته -تعالى- عبر مشاهدة تجلياته في أسمائه وصفاته ومخلوقاته؛ مشاهدتها بعين اليقين، وعين البصر والبصيرة.

معرفته -تعالى- عبر الوصول إليه في مسالك العالم المعنوي، والتدرج في معرفة كنه الكائنات والمخلوقات، وقبلهم كنه الإنسان والقرآن، ثم الوصول إلى القمة في العالم المعنوي، وفي معرفة الله.

التصوف هو الرقي بحال المؤمن ليعيش حياته سعيدا في ظلال الأخلاق الكريمة السامية: كالرحمة والرأفة، والكرم، والعفو، والشكر .

ث. غاية التصوف:

"أن تكون عبدًا لله على أرقى حال"؛ ذلك هو دستور التصوف وغايته وهدفه الذي يسعى إليه، وضعها المتصوفة نصب أعينهم طَوَال الطريق، ووضعها الأولياء نبراسا هاديا تسعى حوله آمالهم وقلوبهم، وقبل ذلك كله وضعها الأنبياء - عليهم السلام - معلمًا رئيسيًا جامعًا لكافة الرسالات والنبوات والأديان.

تلك هي غاية التصوف؛ بل غاية الغايات فيه، الفوز برضا الله ﷻ عندما نأتيه بقلبٍ سليم، قلبٍ نجا من علائق أمراض الدنيا، وتخلص من نكتات الذنوب والمعاصي، قلبٍ سار على النهج النبوي متبعًا أوامر الشرع ونواهيه، متخلقًا بخلق رسول الله ﷺ، ممتثلاً أوامر القرآن؛ يحيا بالعبادات ويحلِّق بها في أفق الإحسان، ولا يهوي بها إلى قاع العادات، فتسمو الروح، ويَطهُر القلب؛ فقط بهذه الغاية.

فإذا غابت هذه الغاية، أو لفها شيء من الضباب؛ اختلَّت الموازين، وانعكست نتيجةُ المعادلة -رغم وجود الإنسان عنصرا رئيسيا فيها- تلك هي حقائق التاريخ والواقع الذي حدثتنا عنه

آيات القرآن الكريم، فالإنسان ذلك المخلوق الراقي الذي اصطفاه الله وميزه على كل مخلوقاته حتى على الملائكة، وارتقى -بعبوديته- إلى أعلى درجات الكمال، هو نفسه ذلك الإنسان الذي ارتكس بنفسه في وهاد الطين بعدما كان في عليين؛ حتى وصل إلى درجة ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾ رغم أنه كان في الأصل مخلوقا ﴿**في أحسن تقويم**﴾، ذلك أنه تخلى عن المعيار الأساسي الذي به يُقَيّم عمله، وافتقد التركيبة الأساسية التي تحول ذلك الطين إلى نور، وتحول ذلك التراب إلى جوهر، إنه الإيمان الذي تتبعه الأخلاق.

ولم تكن مهمة الأنبياء إلا تزكية الأنفس حتى يصل الناس إلى الإيمان، وتتحلى أنفسهم بالأخلاق.

كذلك كانت مهمة الأولياء الذين واصلوا تلقي العلوم القلبية من لدن المنبع النبوي النوراني الفياض؛ ليواصلوا ما هم موكلون به من الهدي المحمدي.

وهكذا؛ كان الارتباط الدائم بنهج المصطفى ﷺ والسير الدائم على أثره، والاستمداد الذي لا ينقطع من ينبوعه هو ديدن هؤلاء المتصوفة السالكين في كل حركاتهم وسكناتهم، وأحوالهم ظاهرًا وباطنًا، وديدن أولياء الله الذين تعاهدوا هؤلاء بالتربية في الطريق النبوي؛ حتى صدق فيهم الحديث الشريف:

"**العلماء ورثة الأنبياء**"[٣٧].

---

٣٧ انظر: البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١.

وبناء على ذلك يمكننا القول أن النضج المعنوي هو ما أراد النبي ﷺ تحقيقه في قلوب وسلوك المؤمنين، وهو أيضًا غاية التصوف، الذي يدعو الناس إلى الإيمان، والتخلي عن دنس الدنيا، والتحلي بمحاسن الأخلاق، فيشمل النضج المعنوي الظاهر والباطن. يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلح له إلَّا السخَّاء وحَسَنُ الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه»[٣٨]

والتصوف من هذه الناحية هو إيصال المؤمن إلى حالة التلذُّذ بالأخلاق الحميدة السامية، مثل الرحمة، والكرم، والعفو، والشكر.

إن النموذج الأسمى الذي يتأسى به أهل التصوف، والشمس التي تنير دربهم، والكوكب الذي يدورون في فلكه، وسفينة النجاة التي يتعلقون بها لتنقذهم من أرض الطوفان، وتوصلهم إلى أرض الإحسان؛ هي الحياة كما عاشها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والتي وضع بنيانها القرآن الكريم، ونقلت لنا دقائقها السنةُ النبوية المطهرة، ثم يأتي الصالحون الذين عاشوا على هذا المنهج، وذاقوا لذة الحياة في ظلاله، فانتقلت إليهم الفيوضات القلبية إلهامًا وكشفًا ووجدًا، فنقلوا هذه الانعكاسات المعنوية إلى من حولهم من أرباب التصوف، ليحيا الجميع هذه الأحوال الرائعة

٣٨ البيهقي، شعب الإيمان، جـ١٣، ص. ٣٠١؛ الهيثمي، جـ٨، ٢٠.

في ظل سيرة المصطفى وصحبه الكرام، وتلك هي الغاية العظمى للتصوف وأهله.

وثمة وجه آخر لغاية التصوف، هي مد يد العون والمساعدة لأولئك السائرين في طريق الزهد؛ الذين يحملون المؤهلات القلبية والإيمانية التي تدفعهم في طريق الكمال، الطريق الذي يجد الإنسان فيه نفسه، ويجد فيه كمال إنسانيته بكمال عبوديته، ويعرف ربَّه حقَّ المعرفة بعد أن يعرف إمكاناتِه وطاقاتِه معرفةً تمكنه من استثمار هذه الطاقات، وتسخير هذه الإمكانات ليصل في المجاهدة إلى أعلى الغايات، ويرتقي أسمى الدرجات إلى جوار الحق سبحانه بعد أن ينتصر على نفسه، فيخمد نيران شهواتها ويعالج روحه من آفاتها.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(الأحزاب، ٧٢)

هذا الإنسان الظلوم لنفسه؛ الجهول بالعلوم القلبية والظاهرية، يريد التصوفُ أن ينقذه من " ظلمه " لنفسه وللناس، ومن الجهل بعلوم الظاهر والباطن، كي ينال الكمالات الأخلاقية والإيمانية ويصير أهلا لحمل الأمانة، ويصبح إنسانًا كاملاً.

وفي هذا الباب يقول الإمام الغزالي:

«ورثة الأنبياء هم من يملكون علوم الظاهر والباطن»؛ أي: العلوم العقلية والقلبية؛ العلوم العامة والخاصة.

ولا ينفصل العلم عن الأخلاق، ولا ينفصل السلوك عن الصفات، فخلاص الإنسان يبدأ بتطهير نفسه من سوء صفاته، وانحراف سلوكه، ثم تتحول هذه الصفات إلى الأجمل، وتتبدل هذه السلوكيات إلى الأفضل، ويرتبط العلم بالأخلاق، ويندمج السلوك في الأدب، ويتشرب العمل خلقًا، ويتشبع السلوك أدبًا، فيتحول العلم إلى "العرفان"، وتصير الأخلاق واقعًا يُعاش، ويصير العلم أركانًا تُبنى عليها صروح الخُلُق. وقد أفصحت آيات القرآن عن أولئك النفر القليل الذين حققوا هذه الغاية، ووصلوا إلى الكمال الإيماني، والتكامل العلمي الخلقي، فقال تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس، ٦٢-٦٣)

ذلك الإيمان، وتلك التقوى هما سر الوصول والحصول: الوصول إلى الله، والحصول على فيوضات الله.

فالإيمان عندما يسكن القلبَ ينفي عنه خبث المعتقدات الباطلة كلها، ويقربه من الحق ﷻ، والتقوى حين تجد طريقها إلى سلوك العبد تطهر قلبه من كل الأغيار، حتى لا يبقى فيه سوى الله، وهكذا يصبح قلب ذلك العبد محل نظر الله، وموضع تجلي أسراره وحِكَمه.

ج. لزوم التصوف:

إن لذة الفاكهة تكمن في لبها، وكذلك ديننا العظيم نجد روعته في لبه وجوهره، وهو التصوف.

ومن المسلَّمات أن الإنسان يتكون من بُعدين هما البدن والروح، وكلٌ منهما له حاجات فطرية، فالإسلام لا ينكر فطرة الإنسان وحاجاته البشرية، بل يعدها حقائق طبيعية، ويسعى الإسلام في إطار المعايير الأساسية إلى الارتقاء بتلك الميول التي يقبلها، والتقليل من الميول المرفوضة إلى أدنى حد، أو إدخالها تحت غاية مقبولة.

فإذا انساق الإنسان وراء متطلبات الجسد فقط، ولم يلبِ إلا حاجاته المادية، فقد ضل طريقه إلى السكينة والسعادة.

وهنا يبرز دور الدين في هداية الإنسان إلى الطريق الأقوم، وفي الإجابة على السؤال الذي حيّر الفلاسفة منذ القدم، ويقدم الأنموذج الأمثل والبرنامج الأكمل الذي تتوازن فيه الروح والمادة، ويتكامل فيه القلب مع الجسد، فهو الذي يقود الإنسان إلى عالمٍ فسيح من

الروحانيات، ويصطحب معه ما ينفعه من الماديات، ثم يعالج هذه الأمور المادية بأن ينفث فيها من روح الدين ولمسات الأخلاق، فتتشبع الماديات بروح الدين، ويحيا الإنسان في تناغم بين نوازعه المادية وآماله الروحانية، ولا يجد ذلك الصراع بين المادة والروح الذي يمزق حياة أولئك المنغمسين في أوحال المادة، حتى فقدوا أدنى درجات الشعور، فصاروا كالذين وصفهم القرآن الكريم:

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)

ولعل ذلك الانغماس في المادة، والبعد عن عالم الروح وانعدام تكامل الرؤى لديهم، هو الذي يدعم خوف بعضهم من التصوف، ويدفعهم للاعتراض عليه.

ولا ريب أن التكوين الطبيعي للإنسان تتوازن فيه الميول الفطرية بين ما هو مادي وما هو معنوي؛ سواءً بسواء، فهو ينجذب إلى الأسرار المعنوية والحقائق المجردة بالقدر الذي ينجذب إلى الموجودات المادية والواقعية؛ لذا لابد من وجود توازن وتكامل وتناغم بين عنصري الإنسان: الروح والمادة، ولابد من الإشباع المتساوي لهذين الجانبين.

ففقدان الجانب الروحاني وإهماله، والاتجاه بالكلية إلى الإشباع المادي؛ هو الذي هوى بالعالم الغربي اليوم إلى هاوية الإلحاد؛ إذ إن

الإسراف في الرفاه المادي، مع ما يصيب أرواحهم من ظمأ شديد ويدمر أخلاقهم من تهافت؛ كان سببه الأول والأساسي هو انقطاع الصلة بينهم وبين النبع الإلهي، بعدما تدخلت يد البشر العابثة، فكدرت صفو الدين، وحرفت الكلم عن مواضعه، وانحلت الأواصر التي تربط قلوبهم بالله، فصاروا كالذي يهوي من السماء لا يَقِرُّ على أرض ولا في فضاء، فلم تغنه الدنيا عن ربه الحق، ولم تغنه الرفاهية عن عوزه الشديد إلى طمأنينة القلب.

حتى أصاب الإلحاد قلب العالم المسيحي في روما نفسها مقر الكرسي البابوي، راعي الدين.

إن الإنسان المحروم من الوجد الديني، والمشاعر الروحية، سيرى أعظم حادثة روحية من وجهة نظر مادية، وسيسعى إلى تفسيرها في إطارها الشكلي فحسب، وبهذا يمسي الدين في عينيه جامدًا خاليًا من أي مضمون.

أما التصوف فهو يصرف اهتمامه إلى الروح، ويدفع الإنسانَ - كلًّا وفق قدراته واستعداداته- إلى أن يُشبِع حاجاته الروحية، التي هي الشق الآخر من تكوينه الفطري، والتي من دونها يفقد الدين مضمونه، وتفقد العبادات جوهرها، فتصير الصلاةُ مجردَ حركات رياضية، وتصير الزكاة معونة اجتماعية وحسب، ومن ثم تفقد العبادات غايتها الأساسية، وفائدتها الجوهرية، ولا يصل الإنسان بعبادته إلى مقام العبودية، أو يدرك الطمأنينة القلبية.

وثمة وجه آخر لفقدان جوهر هذه العبادات، وهو الاكتفاء بأداء الشروط الظاهرية للعبادة، مما يُبعد المسلم عن جوهر الإسلام، ويشوه الفطرة التي فكر الله الناس عليها حين لا يشبع نوازعها الروحية ويغض الطرف عن أشواقها العلوية.

ولا سبيل إلى ذلك التوازن بين المادي والروحي، ولا طريق إلى إشباع العبادات بروح الدين، وتعميق الأداء ووصله مع القلب، إلا من خلال التربية الصوفية.

وقد قام الكثير من العلماء بالتعمق بحثًا وسعيًا وراء حقيقة الدين، وما يحقق جوهره في النفوس، وكانت النتيجة المثلى في النهاية هي التربية الصوفية.

حين توضع المخلوقات كلها في ترتيب هرمي من أبسطها إلى أكملها، سيحتل «الإنسان» قمة هذا الهرم، ولكن حتى في الجنس البشري هناك اختلاف بين الناس كلٌ حسب استعداداته وقدراته الفطرية، وهو أمر ضروري للحفاظ على التوازن الاجتماعي في الحياة الدنيا. وقد خلق الحق ﷻ الناس بمقتضى إرادته الإلهية، وأوجد الاختلاف في استعداداتهم المعنوية، كما هو الحال في استعداداتهم الظاهرية، ولم يكلِّف اللهُ عبادَه أكثر من طاقتهم، لكنه في الوقت ذاته جعلهم مسؤولين، وكلٌّ مُيَسر لما خُلق له.

وتشمل رحمة الله تعالى اللانهائية المخلوقاتِ كلَّها، ولهذا السبب يأخذ الله تعالى أدنى مستوى من الاستعداد بعين الاعتبار

في تحديده وتقديره للتكاليف الدينية الملقاة على عاتق الإنسانية جمعاء، أي إنه سبحانه يضع الحدود الأساسية بحسب طاقة أعجز فرد من مخلوقاته، بيد أن الفضل الإلهي فتح سبلاً وأبواباً لمن لديه استعدادات زائدة على التكاليف العامة ليترقى في طريق السير إلى الله ويروي أشواق الروح وتطلعاتها الإيمانية بما تقطعه من أشواط فسيحة في الزهد والتقوى والإحسان، إضافة إلى المهام الشرعية؛ وهذا الطريق هو التصوف. ونضرب على ذلك مثلاً من الواقع، فقد جاء رجل إلى الشبلي يسأله عن مقدار الزكاة الواجبة في إبله، وقال: كم في خمس من الإبل؟ فقال الشبلي: شاة في الواجب، فأما عندنا، فكلها لله، فقال الرجل: فما دليلك في ذلك؟ فقال الشبلي: سيدنا أبو بكر الصديق خرج عن ماله كله لله ورسوله ﷺ.

ثم قال: من خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر رضي الله عنه، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر رضي الله عنه، ومن أخذ لله، وأعطى لله، وجمع لله، ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكلُّ علمٍ لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم»[٣٩].

ويدل هذا المثال على أن كلَّ صحابيٍّ من الصحابة الكبار ذوي الاستعداد القلبي الكبير كان زعيمًا وإمامًا في التصوف بحسب صفاته التي تميِّزه عن غيره. ويودُّ منا ربنا جَلَّ جَلَالُهُ أن نكون على هذه

٣٩ أحمد زرُّوق، قواعد التصوف، ص٤٩، قاعدة: ٣٣.

الحالة، إذ يقول في الآية الكريمة:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٠)

فكل هذه النصوص النقلية، والاستنتاجات العقلية، وما وراءها من المعاني الروحية والقلبية، دلائل وبراهين على لزوم التصوف.

❀

وكلما ارتقى القلب في عالم الشعور من السكينة إلى الأمان حتى يصل إلى السعادة، ازداد ارتقاء في التربية الصوفية، وحينها يكون قلبه مهيأ -خلال هذه المراحل- لتلقي العلم والحكمة، ومستعدا للاطلاع على حقائق الدين الجوهرية. وهذه المدارج التي يتدرب فيها العبد، ويترقى ويتربى، هي طريق رباني لا مناص لأي إنسان منه، إذا كان يريد الوصول إلى الله؛ حتى الأنبياء وهم قدوة البشرية خضعوا لمثل هذه المحطات في مرحلة الإعداد والتهيئة لتلقي الوحي والرسالة؛ إذ إن القلب البشري يحتاج إلى لياقة خاصة كي يتلقى معانٍ خاصة، ويحتاج إلى درجة من النضج يتحمل معها جلال التجلي الذي يتلقاه، ولطف المعنى الذي يداخله، فيستدعي ذلك تخليصه من القساوة وتحليته بالرقة؛ ضمن برنامج من الإعداد الرباني، والرياضة الروحانية؛ كتلك التي مر بها الأنبياء من أولي العزم:

- فرسول الله قبل تلقي الوحي والرسالة انعزل معتكفًا في غار حراء أيامًا طوال.

- وكليم الله موسى ﷺ مكث في طور سيناء أربعين يومًا منتظرًا ميقات ربه.

- ولقي نبي الله يوسف ﷺ من بلاء إخوته والجب والرِّق والسجن ما لقي قبل أن يصبح عزيز مصر.

- والمصطفى ﷺ تحققت فيه أسرار سورة الانشراح قبل الحدث الأعظم الذي لم يرق إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهو المعراج، وما فيه من عجائب وأسرار، فقد شُق الصدر الطاهر[٤٠]،

٤٠ شق الصدر: هي تلك العملية التي قامت بها الملائكة، ويطلق عليها اسم "شرح الصدر"، حيث شُّق صدره الشريف وانشرح، ووُضع فيه السكينة والنور الإلهي. وقد خضع النبي ﷺ لشرح الصدر ثلاث مرات. كانت المرة الأولى حين كان عمره أربعة أعوام، وبناءاً على الأحاديث الشريفة أُزيلت من قلبه عَلَقَتَانِ سَوْدَاوَانِ، ووضِع مكانهما الطمأنينة والسكينة. (انظر: أحمد، جـ٤، ١٨٤-١٨٥؛ ابن سعد، جـ١، ١١٢)

والمرة الثانية حين كان في العاشرة من عمره، حين أُخرج الغلُّ والحسد من قلبه ووضِعت الرأفة والرحمة مكانهما. (انظر: أحمد، جـ٥، ١٣٩؛ الهيثمي، جـ٨، ٢٢٣)

أما المرة الثالثة فكانت قبل المعراج، وحينها أيضاً شَقَّ عن قلبه وملئ بالإيمان والحكمة. (انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، الأنبياء ٢٢-٤٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٤)

وتشير الآية الكريمة التالية إلى العملية التي خضع لها رسولنا صلوات الله عليه وسلامه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح، ١)

ونُظِّف القلب الشريف، ومُلئ بالحكمة الربانية والعلم اللدني، استعدادًا وتهيئة للمثول في الحضرة الإلهية.

فإذا كان هذا هو حال الأنبياء في التربية الروحانية، فما بالنا ببقية العباد، وإلى أي قدرٍ يحتاج هؤلاء من التربية والتطهير القلبي للدنو من الله، ورؤية حقائق الكون ومعانيه بعين البصيرة.

فهل يستطيع أنفٌ فقد حاسة الشم أن يستنشق عبير الزهور؟!

وهل تستطيع عينٌ أن ترى صفاء الطبيعة من وراء زجاج مغبش؟!

إن إزالة الموانع الذاتية والخارجية من الحواس توسع أمامها دائرة الإدراك، وتفسح أمامها دائرة الشعور، والقلب كذلك كلما ازداد طهراً، ازداد من الله قرباً، وازداد اطلاعًا على أسرار العلم والكون، وصار موئلاً للتجليات الربانية. وهذا القلب السليم هو مناط الفخر والفوز عند الله، كما قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء: ٨٨-٨٩)

ولكي نصل إلى هذا الوصف القرآني "قلبٌ سليم" نحتاج إلى باع طويل من التربية المعنوية.

هذه المدة قد تطول دهورًا، كما تفعل الأمواج بصخور الشاطئ، فهي على صلابتها وقساوتها ونتوءاتها، تفعل فيها

الأمواج فعل السحر، فتهذبها وتشذبها، وتجعلها ناعمة ملساء، ثم تصقلها.

كذلك الألماس الذي يعود في أصله إلى الكربون الأسود؛ يتحول بفعل الضغط والحرارة الهائلين إلى الألماس، ثم تتدخل يد الصانع الماهر الخبير لتقطيعه وإعداده وتصنيعه، فيَظْهَرُ للناس معدنُه الخاطف للأبصار، وكذلك الذهب الخام يكون مشبعًا بالأتربة والشوائب، ويصهر في حرارة عالية ليزول خَبَثُه، وكلما زادت عليه النار، زاد صفاؤه، وارتفع معياره وقيمته[٤١]، كذلك القلوب والعباد، تزاد قيمتهم ومعيارهم وصفاؤهم كلما زادتهم يد الخبير تربية وتهذيبًا.

كما أن الحديد - الذي فيه بأس شديد - يخضع أيضًا للنار والكير؛ كي تنفي عنه خَبَثَه وشوائبه، ثم يعرض للنار مرة أخرى، ويُطرق حتى يتم تشكيله والانتفاع به، وبغير هذه المراحل: النار والإحماء والطرق، لا يصير حديدًا ولا يتم الانتفاع به، ولابد للقلب - كذلك - أن يمر بمثل تلك المراحل؛ ليحصل له النفع، وليدرك أعظم المعاني في عالم الحقيقة الذي لا يدركه الإنسان

٤١ ثمة معنى لطيف هنا، ففي اللغة نجد عملية تنقية الذهب من الشوائب بالنار تسمى "الفَتن" وهي ما يطلق أيضًا على ما يتعرض له الإنسان من اختبارات وابتلاءات، فكلما زادت الفتن على العبد ازداد نقاءاً من ذنوبه، كالذهب الذي يزيده الفتن نقاءاً من شوائبه.

بحواسه، ولا يبلغه بعقله، إنما يصل إليه بقلب تربى وتدرب ونال قدرًا كافيًا – وفق طاقته – من الرياضة الروحية.

وهي مسألة تحتاج إلى تدريب طويل، كمثل الرياضي المبتدئ الذي قد يصاب بأذى إذا قام بحركة ما من دون مران، لكنه يؤدي الحركة نفسها بمهارة فائقة بعد فترة من المران، والقلب كذلك يحتاج إلى رياضة طويلة ومران صعب كي يتخلص من قساوته وشوائبه وصلابته وذنوبه، ثم تليّنه الرياضة المعنوية، وتجعله مَرِنًا رقيقًا مستعدًا للارتباط بالله الحق ﷻ، هذا اللين وتلك الرقة لا تكون إلا بكثرة الذكر لله تعالى، وبتنامي محبة النبي ﷺ.

يقول الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

ثم يتدرج القلب بعد أن يتدرب، ويرتقي في العلوم، كالطفل الذي يتدرج في مراحل التعليم، ففي عامه الدراسي الأول لا يستطيع استيعاب كتاب مقرر في كلية الحقوق، فهذا يحتاج منه مستوى من النضج العلمي والذهني ما يفوق سنواته العشر، فما بالنا بالقلب الذي يريد مستوى من النضج يصل به إلى الله؟

هذا الطريق يبدأ أولاً بتخليص القلب من القساوة وتطهيره من الذنوب، وهو ما وضحه لنا القرآن الكريم، والسنة النبوية.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (الأنعام، ١٢٠)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام، ١٥١)

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف، ٣٣)

أي إن الإنسان مُجبر على تفادي الآثام الباطنية، مثلما هو مجبر على الابتعاد من الآثام الظاهرية، حتى إن بعض الذنوب الباطنية، مثل الكِبر، والرياء، والحسد، والحقد، والغضب، والبخل، هي أشد خطرًا وأفتك أثرا، والحديث الشريف يخبرنا بحقيقة أنَّ:

"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر"[٤٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال:

"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا"[٤٣]

---

٤٢ مسلم، الإيمان، ١٤٧.

٤٣ البخاري، الأدب، ٥٧.

ووفقًا للحديث؛ لابد للقلب من التخلص من سوء الخلق، ومن أمراضه المعنوية مثل الكبر، والحسد، والبخل، و..... ولابد كذلك أن يتخلص من ذنوبه الظاهرية.

وكلاهما متعلق بالآخر، الذنوب الظاهرية والباطنية، فالذنوب الباطنية وأمراض القلب تنعكس نتائجها على الظاهر، فتنتج الذنوب الظاهرية.

لكن الخطير في الأمر أن الذنوب الباطنية أكثر انتشارًا بين الناس رغم خطورتها؛ فهي لخفائها لا يُفْطَنُ إلى مدى توغلها وأثرها.

والقلب الذي يسعى إلى الارتباط بمولاه، والقرب من الله سبحانه، ويطمح في التجليات الربانية بالانكشافات القلبية؛ يحتاج إلى التخلص من كل تلك الذنوب ظاهرًا وباطنًا؛ ويحتاج إلى التطهر الدائم منها، والابتعاد الدائم عنها، وهو ما يتطلب منه تربية معنوية خاصة؛ لا تكون إلا في التصوف.

ولأن القلب هو بوتقة الأسرار، فعليه ينعقد الأمر كله، عبادة وسلوكًا، رياضة وجهادًا، علمًا وتقوى.

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث:

"إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"، وأشار بأصابعه إلى صدره.[٤٤]

٤٤ مسلم، البر، ٣٣.

والقلب مَعْقِدُ النية ومكمنها، والنية هي روح العبادات والسلوك، فإذا كانت النية مرتبطة بالله خالصة له سبحانه، تحولت العادات إلى عبادات، وتحولت الحركات إلى مجاهدات، وصار كلُّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ موجهًا في سبيل الله، حتى اللقمة التي يلقيها في جوفه، أو يطعمها لأهله.

فمثلاً نجد أن ارتداء العِمامة أو تغطية الرأس سنة نبوية يؤجَر فاعلُها، لكن الأجر هنا ليس منوطًا فقط بالمظهر؛ بل لابد أن يوافقه الـمَخبَر، فتكون الهيئة على منوال السنة، ويكون السلوك أيضًا على منهاجها، وإلا فلا أجر يُمنح ولا سُنة تُتبع؛ بل يصير الأمر تقليدًا شكليًا يؤتي نتائج عكسية، فيسوق المرءَ إلى العجب والتكبُّر بمظهره الخادع للناس ولنفسه.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر التركي "يونس أَمْرَه":

لو كان التصوف في العباءات والعمائم

لاشتريناه من الأسواق ببضع دراهم

وينطبق الأمر -في المظهر والملبس- كذلك على المرأة، فالتستر في الملبس والحجاب هو فريضة واجبة على كل مسلمة بالغة؛ لكن إذا تحجب الجسد وعريت الروح؛ وإذا كان الحجاب ساترًا للبدن فحسب، ولم يكن ساترًا للسلوك؛ ينقلب الأمر إلى الضد، وحينها يكون الستر مجرد غطاء وإخفاء لسوء الخُلُق، فالحجاب سلوك وليس لباسا فقط.

وإذا كان بناء المساجد له أجر كبير فمن بنى مسجدا في الدنيا بنى الله له قصرا في الجنة، لكنه منوط أيضًا بنية العبد وقلبه، فإما أن يظل كبيرًا بتفويض الأمر إلى الله ونسبة الفضل إليه بقوله: " هذا من فضل ربي"، وإما أن يتصاغر الأجر حتى يصير هباءً منثورًا إذا داخله الإعلان عن الذات والإعجاب بالنفس في نسبة المدح لها بقوله: "أنا أفعل كذا" وحينها تحل كلمة "أنا" في القلب، فيخرج منه "الله".

والعبادات في الإسلام منوطة بأمرين: الشكل والروح، وهو ما عبّر عنه الفقهاء حينما قالوا: إن شرطي قبول العبادة هما:

- أن تكون موافقة للشرع (في الشكل).
- أن تكون خالصة النية (لله وحده).

وقد حرص القرآن عند الحديث عن العبادات والسلوكيات أن يركز على الحالة الروحية والأحاسيس القلبية في أدائها، وليس على الحركات والسكنات، فتفاصيل العبادات وهيئاتها غير مذكورة في آيات القرآن، إنما تعلمناها من سنة النبي ﷺ.

فالقلب والروح هما الباعث في حسن أداء العبادات، وهما السبب في قبولها؛ لذا كانت التربية القلبية هي الضمانة الحقيقية للقبول والوصول، والتصوف هو وسيلة تلك التربية القلبية.

إن مظاهر العبادة يستطيع كلُّ فرد أن يؤديها؛ حتى لو لم يكن مسلمًا، فها هو رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول، كان يصلي خلف رسول الله ﷺ، ولكن لا قيمة مطلقًا لعبادات تنفصل فيها الحركات عن المشاعر، وأداء المنافقين هذا للعبادات قد يخادعون به الناس، أو يخدعون به أنفسهم، لكنهم لن يخادعوا الله الذي لا يقبل من العبادة إلا ما كان صادرًا عن القلب؛ مفعمًا بالروح.

وهذه الحقيقة - حقيقة قبول العبادة - من اليسير أن تطّلع على أدلتها إذا حلَّلنا بصورة عامة الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الصلاة والصيام والزكاة والحج التي تكوِّن أركان الإسلام، ومن هذه الآيات الآيةُ الكريمة التالية التي تتحدث عن الصلاة:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، ٤٥)، أي إذا لم تنهَ الصلاة الإنسان عن المنكر، فليست الصلاة التي يريدها الله تعالى من عباده.

ويقول الله تعالى في شأن أولئك الذين يصلون صلاة بالصورة فقط دون أن يكون فيها خشوع في القلب:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤-٥)

وفي آية أخرى يقول المولى ﷻ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون، ١-٢)

ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن إحدى صفات المؤمنين المفلحين هي الخشوع في صلاتهم، فلكي يؤدي العبد الصلاة بمعناها الحقيقي، عليه أن يوفي بشروطها الظاهرية والباطنية كلها، فقد يصلي شخصان الصلاة عينها في المكان والزمان نفسه، لكن يكون الفرق بين صلاتيهما كالفرق بين السماء والأرض.

ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي يشير فيه إلى ضرورة مراعاة الهيئة القلبية في الصلاة:

"إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها"[٤٥].

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم في مَعرِض ذكره لصفات المؤمنين:

﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ (المؤمنون، ٩)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في المعنى الإشاري لهذه الآية الكريمة بالإضافة إلى معناها الظاهري:

«يدومون على الحال التي كانوا عليها في الصلاة حتى بعد الانتهاء من أدائها».

ويقول أيضًا: «إن الصلاة التي تهدينا إلى الصراط المستقيم وتنهانا عن المنكر، نؤديها خمس مرات في اليوم، ولكنك ترى

٤٥ أبي داود، الصلاة، ٧٩٦.

العاشقين دائمًا في صلاة، لأن العشق المشتعل في أفئدتهم، والمحبة الإلهية التي تسكن ضلوعهم، لا تهدأ بهذه الأوقات الخمسة بل ولا بخمسمائة ألف وقت».

ويصوِّر يونس إمْرَه صلاة عشَّاق الله الذين استيقظت أفئدتهم من الغفلة فيقول:

العشق هو الإمام، والقلب هو الجماعة

هُم في صلاةٍ، متوجهين إلى الله في كل ساعة

فالمدة التي يقضيها العبد في أداء الفريضة وفي الصلاة هي دقائق معدودات لا تتجاوز العشر دقائق؛ لكن العبرة ليست في هذه الدقائق؛ إنما في الشحنة المعنوية التي تملأ بها فؤادك وروحك خلالها، لتنطلق في رحلة الحياة بمعين لا ينضب يوصلك إلى المحطة التالية بأمان، لتعاود التزود مرة مرة بهذه الطاقة اللانهائية، فالصلاة تعطيك من الشعور ما يحفظ قلبك عن الغفلة طوال الفترة التي تلي الصلاة، فيظل القلب في حالته التي كان عليها، وكأنه في صلاة دائمة لا تنقطع، ولو لم يحافظ على هذا المستوى من الشعور في قلبه؛ لتراجع به إلى مستوى الغفلة، ثم نزل به دركات ودركات من الفسق والفجور.

أما هؤلاء الذين لا يدركون حقيقة الصلاة والخشوع فيها، فهم أهل الغفلة المحرومون من معاني الوقوف في الحضرة الإلهية،

فإذا كانوا في الصلاة على هذا الحال فكيف يكون حالهم -إذًا- بعد الصلاة؟!

وفي أقصوصة ذات معنى عن متصوف يجاهد في طريق الوصول إلى الله، كان ذلك الدرويش قائمًا يصلي بالليل في أحد المساجد مختليًا مع ربه، ثم بدأ المطر يهطل بغزارة، فأخذت شدة الأمطار بقلب الرجل إلى منزله وأهله، وذلك أثناء الصلاة، وعندئذ سمع صوتًا من أعماقه يهتف به ويحذره:

"أيها الرجل المصلي!! إن صلاتك التي تؤديها لا قيمة لها، فقد أرسلت أهم وأجمل قطعة فيك إلى مكان آخر،أرسلته إلى منزلك، ولم تترك للمسجد ولصلاتك سوى بدنك".

وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ:

"وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر"[٤٦]

وخلاصة الأمر أن القلب ونضجه هو الركيزة الأساسية في الصلاة، وفي كل العبادات.

فالصيام -كذلك- من العبادات القلبية رغم شروطها الظاهرية، فالصيام عبادة تمحي الذنوب وتزيلها؛ يقول النبي ﷺ:

"من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه"[٤٧]

---

٤٦ ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ٣٧٣.

٤٧ البخاري، الصوم، ٦.

وليست الغاية من الصوم جعل الناس يعانون من الجوع، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، ١٨٣)، وهكذا يوضح الله تعالى أن الغاية من الصيام هي التقوى.

فعبادة الصيام لا تؤديها فقط المعدة والفم، ولا يُسأل عن صحتها فقط الجهاز الهضمي؛ بل الجهاز الشعوري كله، فالجوع يمنح الفكر مساحات شاسعة، ويمنح الشعور آفاقا رحيبة؛ لأن البِطنة تُذهب الفِطنة، والحرمان في الجوع والعطش يُبرر ما قد يُحرم منه القلب من المشاعر التي يفتقدها في زحام انشغاله بنفسه، فيتذكر العبد في حرمانه المؤقت مدى معاناة الآخرين في حرمانهم الدائم، عندها يدرك القلب مدى حرمانه هو الآخر من مشاعر الشفقة على هؤلاء، والرحمة والحرص على مساعدتهم وإسعادهم، فضلاً عن أن يؤذيهم بالغيبة والنميمة والبغض والكيد، ويدرك أيضًا مدى تقصيره في شكر النِّعم التي منحها له الله تعالى.

تلك هي بعض الفيوضات التي يمنحها الصيام للصائم، بشرط أن تصوم جوارحه قبل معدته.

يقول النبي ﷺ: **"رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع"**[٤٨]

٤٨ ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ٣٧٣.

فإذا ما انتقلنا إلى عبادة الزكاة التي هي مظهر من مظاهر الإيثار لدى المؤمن، وجدنا أيضًا من صفات المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات، ١٩)

فإذا اكتملت الدائرة الشعورية وعرفنا ذلك الحق، حينها يتواصل الإحساس بين اليد التي تعطي والنفس التي تسمح وتسامح، وبين القلب الذي يؤمن أن المال المؤدَّى إنما هو ملك للفقير وحقٌّ له، وليس على الإطلاق منحة أو فضلا من المزكِّي، وأنه حين يُعطيه للفقير فهو إنما يعيد الحق لأصحابه، ويُسلِّم عيال الله حصتهم في مال الله الذي هو مؤتمن عليه، ومكلف بتوصيله لأصحابه، ولا ينتظر من المستَلِم دعاءًا ولا شكرًا؛ بل المزكِّي هو الذي يشكر الفقير؛ لأن الفقير قد ساعده في أداء الفريضة، وتنفيذ المهمة التي لو قصَّر فيها لكان عرضة لجزاء الخائن المختلس، والتي حين يتمها على وجهها الأفضل ينال الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة.

كذلك لكي يصل المؤمن الكامل إلى سرِّ قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل»[٤٩]، عليه أن يتصدَّق وكلُّه إيمانٌ أنَّ المال قد أعطاه في الحقيقة ليد القدرة الإلهية... وهذا هو المعيار القلبي الذي يحفظ كمال عبادة الزكاة.

---

٤٩ الطبراني، المعجم الكبير، جـ٩، ١٠٩؛ الهيثمي، جـ٣، ١١٠-١١١.

وليس الوصول لهذه الحال مستحيلاً ولا خيالاً، فقد كان سلفنا الصالح يزينون صدقاتهم، ويعطرون دراهمهم؛ لأنها سوف تصل إلى يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل الفقير، وليس ذلك من قبيل المبالغة ولا التخيل؛ إنما هي حقيقة واقعة صرح بها القرآن حين قرّر أن الله تعالى هو الذي يتقبل الزكوات:

﴿**ويأخذ الصدقات**﴾ (التوبة، ١٠٤).

هذه الحقيقة القرآنية يفتقدها أولئك المتعجرفون بأموالهم؛ الذين يُتبِعون صدقاتهم بالمن والأذى، وهم حقيقة لا يؤذون الفقراء إنما يؤذون أنفسهم بحرمانها من الأجر والمشاعر الراقية، ويحرمون قلوبهم من الحالة الشعورية الراقية التي تمنحها لهم الزكاة.

وتظهر هذه الرقة القلبية أكثر في عبادة الحج، ويبدو للوهلة الأولى الشكل الظاهري والبدني راجحًا في هذه العبادة، من الإحرام والطواف، إلى الوقوف على عرفات والنحر، ثم الذهاب إلى مزدلفة، لكن كل هذه الشعائر هي الشكل الظاهري للحج فقط، أما الحالة الشعورية التي يحياها الحاج أثناء هذه الشعائر؛ بل التي تعكسها هذه المظاهر، فإنها تُذكِّر المسلم بيوم الحشر، وتضحيات أنبياء الله ولبس الكفن والتجرد من كل مظاهر الدنيا، والحساب الإلهي الذي يجب على المسلم أن يبدأه مع نفسه في الدنيا؛ قبل أن يفاجئه طول الحساب وثقله في الآخرة.

وفي الحج يتجرد الناس من الملابس، فتذوب الفوارق وتزول الرتب، ويلبسون أشباه الأكفان فيكون التجرد -ولو مؤقتًا- من كل متاع الدنيا، ويؤدي الجميع فعلاً واحدًا، وقولا واحدًا، بل يمتنع الجميع عن الكثير من المباحات، ويصير بعض الحلال حرامًا مؤقتًا؛ حتى بعض خطرات النفس وزلات اللسان.

إنها نوع خاص من التربية ومستوى رفيع من الإعداد القلبي.

ومرة أخرى فإن هذه الحركات والشعائر ليست مطلوبة لذاتها، إنما لما وراءها من المعاني، وهذا ما يؤكده القرآن في حديثه عن الأضحية في الحج؛ إذ يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج، ٣٧)

هذا القبول للأضحية والقربان أو رفضه؛ إنما هو منوط برضا الله تعالى عمن قدمه، وعن نية صاحب القربان وغرضه، وهو ما حكاه القرآن في قصة ابني آدم عليه السلام، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة، ٢٧)

وبعد أن استعرضنا هذه العبادات وما وراءها من المعاني، وما ترمي إليه من الأغراض، فقد اتضح لدينا أن هذه العبادات لن تكون "مقبولة"، ولن تكون "صالحة" إلا إذا أداها القلب قبل الجوارح، فصفت نيته، وخلص توجهه إلى الله وحده.

لكن ثمة استدراك هنا؛ إذ لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن شروط إخلاص النية وصفاء القلب إذا لم تتحقق؛ فعلى الإنسان ترك العمل والإعراض عن العبادة تمامًا، بحجة عدم استعداد القلب للأداء، أو عدم صلاحية النية للعمل، وإلا فلن يتم عمل ولن تتم عبادة، فمَن مِن الناس يملك قلبه؟!

ولكن ما ينبغي أن نفهمه هو وجوب السعي المتواصل كي نصل بالأعمال والعبادات إلى هذه الدرجة من الكمال شيئًا فشيئًا، وأن نحقق في أعمالنا وقلوبنا هذه المعاني من الخشوع والإخلاص والتقوى. وهو طريق طويل وشاق يحتاج إلى طول مجاهدة مع صبر وتحمل، مع ابتهال إلى الله ورجاء بأن يعينك على سلوك الطريق، وأن يمنحك من فيضه وكرمه ولطفه.

وفي خضم ذلك كله يرسخ في أذهاننا وأفهامنا أن التصوف هو الطريق للوصول إلى هذه المعاني والحالات عبر أساليبه المميزة والمتفردة في التربية؛ لذا فقد تعرض لهجمات شرسة من أعداء الإسلام، وأعداء الدين من بني جلدتنا، وعلى الجانب الآخر نجد محاولات استلاب الإسلام وتفريغه من محتواه، وتصويره على أنه

مجموعة من النظم المتحجرة الفارغة المضمون، الخالية من المشاعر والمعاني.

وقد استغل هؤلاء بعض الأخطاء التي ظهرت لدى بعض أهل التصوف - وهو أمر بشري طبيعي- فنسبوا هذه الأخطاء الشخصية إلى التصوف نفسه بعد أن بالغوا في تصويرها، هادفين إلى الطعن في التصوف ورفضه، وصدِّ الناس عن سبيله، وإغلاق الباب في وجوه المريدين الساعين إلى تربية قلبية.

ولنا هنا أن نتساءل؛ هل إذا أخطأ طبيب ما في علاجك، يكون ذلك مدعاة لك أن تترك الطب كله؟. ومن ناحية أخرى؛ هل تصلح المعايير المادية الجامدة لنقيس بها شيئًا معنويًا حسيًا، وهل يصلح أناس عاديون فاقدي المعاني والأحاسيس، كي يحكموا على التصوف وأهله؟!

فالأشخاص الذين يحيون حياة عادية روتينية، محرومين من التفكير، محرومين من المشاعر، مفتقدين للمحبة والعشق، لا تمر الحوادث على قلوبهم ولا يعرفون من عالمهم الروحاني شيئًا، هل هؤلاء لديهم القدرة على العيش حياة التصوف أو الوصال مع الله تعالى؛ ليس قبل أن يتجردوا من هموم الدنيا وشواغل القلب، وتصفوا أرواحهم وتسمو غاياتهم.

التصوف في إحدى حقائقه هو مسؤولية إنسانية، والمتصوف هو ذلك الإنسان الذي يحمل على عاتقه مسؤولية هداية المجتمع

إلى سبيل الحق وطريق الله، فالمتصوف بعد أن فهم القرآن وتشربت روحُه حقائقَه، وعاش عالم القرآن متجردًا عن عالم الدنيا؛ متعمقًا في عالم الروح، واصلاً إلى عالم الحكمة؛ كل هذه العوالم التي يعيشها المتصوف في ظلال بالقرآن، يتمنى أن يوصل إليها كل أفراد مجتمعه ليعيشوها كما عاشها هو.

في يوم من الأيام مشى الشيخ نجم الدين كُبرى- وهو أحد أولياء الله- في جنازة رجل صالح، وأثناء التلقين، تبسم الشيخ نجم الدين، فاحتار الطلاب في سبب تبسمه المفاجئ، وسألوه عن الحكمة في ذلك، لكن سيدنا نجم الدين لم يرغب في توضيح ذلك، إلا أنه بعد إصرار الطلبة قال:

«قلب الملقِّن غافل، أما قلب الميت في القبر فحيٌّ، فتعجبت للغافل يلقِّن من قلبُه حي».

إذًا، حالة من يرفض التصوف وينكره باسم العلم هي مثل حالة الميت الذي يلقِّن الحي، هي حالة تثير الدهشة. ولا ريب أن نجاح جهود وأعمال أهل التصوف على مدى التاريخ هو السبب في إبقاء الحياة الدينية حيَّةً وانتقالها إلى الأجيال القادمة، وفي إرشاد الناس وتبليغ الإسلام.

ويبيِّن محمد حميد الله -وهو من أبرز علماء الإسلام في القرن الماضي- هذه الحقيقة بقوله:

«لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيت عليه، وكانت دراساتي وبحوثي تحملني على رفض كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته بصورة مقنعة، وبالطبع كنت أؤدي فروض الإسلام، مثل الصلاة والصيام وغيرها، ليس لأسباب تصوفية، وإنما لأسباب شرعية. وكنت أقول لنفسي: إن الله تعالى هو ربي ومولاي، وقد أمرني أن أفعل هذه الأشياء، ولهذا يجب عليَّ أن أقوم بهذه الواجبات، فضلًا عن هذا كله، يرتبط الحق والواجب كل منهما بالآخر، والله تعالى قد أمرني بذلك كي انتفع واستفيد منه، وواجبي في تلك الحالة أن أشكره.

ومنذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طُلب مني إيضاح إحدى الموضوعات الإسلامية، فجوابي وأدلتي العقلية لم تكن مقنعة للسائل، ولكن الإيضاح الصوفي لم يتأخر عن إعطاء ثمرته، وبدأت أفقد بالتدريج قوة تأثيري في هذا الموضوع، والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوربا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب- أي التصوف- كما كان الحال في زمن (قزان خان) عقب الدمار والخراب الذي سبَّبه هولاكو.

وبعد رؤيتي الجديدة في هذا الموضوع، بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، مما فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وكان منهج كبار متصوفة الإسلام، لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه ﷻ، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها.

ويبحث الإنسان بطبعه عن أسباب الواجبات التي كُلف بها، لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تُبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي تُقنِع الإنسان»[٥٠].

ونفهم من هذا التوضيح أن رفض التصوف المطابق تمامًا للقرآن والسنة كُفرانٌ بالنعمة؛ عاقبته ضياع وتِيه.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إذا فقد أنفك حاسة الشم، فلا تَلُم الوردة».

وثمة جانب آخرُ شديد الأهمية في دور التصوف ومسؤوليته والمهمة المنوطة به، وهي إصلاح المجتمع والعبور بالناس إلى الجانب الآخر من صحراء الدنيا إلى ظلال الروح وجنة القلب، فأسلوب

٥٠ محمد عزيز لحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة، إسماعيل حقي آقن، ص ١١٤-١١٥،هامش٨، اسطنبول، ١٩٧٢. وهذا الهامش هو نص الرسالة المؤرخة في٢٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧ والذي كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.

التصوف وطريقته في هذا الإصلاح هي المحبة والرأفة، وهي طريق تختلف عن الأساليب الشرعية الفقهية المتبعة: الترغيب والترهيب.

ففي عالم غارق في شهوات النفس واستعباد العقل وسيادة المادة، وفي وسط أناس قد أسرتهم الدنيا وأهلكتهم الذنوب، ولم يعد لديهم أمل في النجاة؛ في هذا الخضم الهائل الخطر، تبرز أهمية المحبة والرأفة أسلوباً للإنقاذ والعلاج والهداية، ووسيلةً معنوية تغدو بها قلوب الناس لتخاطب أرواحهم، وتحظى بالفتوحات المعنوية في أرض مادية قاحلة، فتهب نسائم الإسلام الإلهية كنفحة صوفية تواسي الهلكى، وتحملهم بوداعة إلى سبيل النجاة والفلاح.

لذا؛ لم تكن المحبة مجرد وسيلة وأسلوب صوفي للدعوة؛ بل كانت المحبة من أسس التصوف وحقائقه، ومن أبرز قواعده التي بنيت عليه وسائل الدعوة إلى الله، ونشره الإسلام في ربوع الدنيا.

وها هو واحد من تلك البقاع التي دخلها الإسلام على أيدي أولياء الله من أهل المحبة، يبين موقفه من أولئك الأولياء أمثال: عبد القادر الجيلاني، ويونس إمره، وبهاء الدين النقشبندي، ومولانا جلال الدين الرومي، إنه الفيلسوف والشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال؛ عندما كان قادمًا من بلاد الهند/ باكستان، ودخلت الطائرة المجال الجوي التركي، فجأة يهب الرجل واقفًا، ويأبى الجلوس، وكان إقبال من عشاق مولانا جلال الدين الرومي، فلما سأله رفاقه عن ذلك قال:

«إن هذا التراب هو تراب مبارك يضم قبر مولانا جلال الدين الرومي، والشعب الذي يعيش في هذا المكان المقدس هو شعب مقدس أيضًا، فقد حافظوا على الإسلام لسنوات طوال، وقد ساهم الشعب التركي في نشر الإسلام في بلادنا، لهذا فأنا أكنُّ كل الاحترام والتقدير في قلبي لمولانا الرومي ولشعبه النبيل، وهذا ما جعلني أقف احترامًا».

هذا النموذج الحي لامتداد أثر المحبة الصوفية من جيل الأولياء في الماضي البعيد إلى جيل الفلاسفة والمفكرين الذين يقودون العالم الإسلامي في الحاضر؛ يدل دلالة قاطعة على أن للمحبة الأثر الأقوى والأكثر استمرارًا ونفوذًا، وها هي ثمار المحبة ينال جناها آلاف من الشخصيات النادرة مثل إقبال، ثمار العشق، والوجد، والرقة، واللطافة، والمعرفة، والخلق الرفيع، عبر الأجيال والقرون، وبامتداد المسافات والبلاد.

التصوف هو الإلمام المتكامل والمتوازن بعلوم الظاهر والباطن، انطلاقا من الحقائق والعلوم الظاهرية، وصولاً إلى قمة المعارف المعنوية

ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى:

خلق الله تعالى في فطرة الإنسان ميلاً طبيعيًا إلى المعرفة، ورغبةً في الاطلاع، مع فضولٍ يدفعه إلى البحث؛ هذه الدوافع تطورت مع الإنسان طوال وجوده وتفاعله مع الحياة، فتطورت العلوم والمعارف؛ حتى صارت هذه العلوم بشُعَبِها وفروعها شبكةً ممتدةً تتلاقى خيوطُها في نقاطٍ مشتركة مع العلوم التي تنبع من أصل واحد، وتعتمد على حقائق واحدة رغم تباين طرق البحث، ورغم البون الشاسع بين ما هو فيزيائي، وما هو فلسفي أو ديني أو فني.

لكنها في النهاية تصُبُّ في بوتقة التصوف إذا بُحثت بمنظور "الحكمة"، وهو ما نحاول تجليته في الصفحات الآتية؛ حيث سنحلل علاقة التصوف بالعلوم الأخرى في الأقسام الخمسة على الوجه الآتي:

١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى (علم الكلام – التفسير – الحديث والسيرة – الفقه).

٢. التصوف والعلوم الطبيعية.

٣. التصوف والأدب.

٤. التصوف والفنون الجميلة (الموسيقى، العمارة، الخط).

٥. التصوف والفلسفة.

١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى.

غاية خلق الله للإنسان، وأساليب تحقيق هذه الغاية قد فصّلها الدين ويسّرها، وعلوم الدين التي نشأت وتنامت في رحاب الدين إنما تطورت لأجل توضيح هذه الغاية، فغاية خلق الإنسان وغاية الدين هي العبادة، والعبادة في معناها الإسلامي الشامل تشمل واجبات المسلم تجاه ربه ﷻ، وتجاه مخلوقات ربه، وتجاه كتاب ربه المسطور (القرآن)، وتجاه كتاب ربه المنظور (الكون)، والتصوف هو روح هذه العبادات، وهو القلب الذي يؤديها، وهو البصيرة التي تدركها، وهو الفهم الراقي الذي يحصِّل معانيها فيحسن أداءها، وهو القواعد الحسية والمعنوية التي تعطي الروح والحياة للقواعد الأكاديمية الجافة لهذه العلوم؛ سواء كانت علومًا دينية أو علومًا دنيوية، وكلها في النهاية علوم للإنسان ولخدمة الإنسان ولهدايته في درب الحق للوصول إلى الحق.

والعبادات -على سبيل المثال- ليست حركات تؤدى، ولا طقوسا محفوظة، ولا عادات ميكانيكية فحسب، إنما هي عبادات غايتها الخشوع، ووسيلتها الخشوع، وروحها الخشوع، وهذا

الجانب القلبي الأصلي فيها أكدته آيات القرآن الكريم مرارا وتكرارا. حتى الإيمانُ نفسُه من شروطه التصديقُ بالقلب والإقرار بالجوارح بعد الإقرار باللسان، والتصوف هو الذي يهتم بذلك التواصل ما بين الجانبين الظاهري والباطني من أعمال العبادات.

ولا سبيل إلى تحصيل حقيقة العلوم الظاهرية دون الاعتماد على المشاعر القلبية بالتوازي مع القواعد والأساليب العقلانية، فالعلم الذي يفتقد الخشوع -كجسد فاقد للروح- علم لا فائدة تُرجى منه، فها هم علماء بني إسرائيل حصَّلوا علمًا جمًّا، لكنه لم يتجاوز عقولهم إلى مشاعرهم ولا إلى قلوبهم، فكانوا كما قال الله تعالى:

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة،٥)

وقبل أن نورد تفاصيل علاقة التصوف بفروع العلوم الإسلامية، نؤكد على حقيقة أن سبب الجدل الذي يقع أحيانًا بين التصوف والعلم إنما هو لخلل في التواصل بين الجانبين، فإذا تم إصلاح هذا الخلل وجدنا الجانبين في تناغم وتواصل، يكمل أحدهما الآخر.

أ. التصوف وعلم الكلام

من نافلة القول أن نذكر تعريف علم الكلام، وهو العلم الذي يتحدث عن ذات الله تعالى وصفاته ووحدانيته، وهو من أعلى العلوم كَعْبًا وأشرفها قَدْرًا؛ لدوره في إثبات العقائد ومواجهة

شبهات المشككين ودحض أباطيلهم، وإقناع الناس -باستخدام المنهج العقلي- بالإسلام وحقائقه.

بينما يستخدم التصوف المنهج القلبي في معرفة الله وتعريف الناس به وبصفاته وكمالاته ﷻ.

وثمة تلاقٍ بين علم الكلام والفلسفة في المنهج العقلي إثباتًا للحق ودحضًا للباطل، لكن علم الكلام منضبط بضوابط الشرع؛ مبنية قواعده على القرآن والسنة، يزاوج بين "العقل" و"النص".

فالعقل الذي يثبت الحقيقة بمنطق السبب والمسبب، أو بمنطق الأعرابي:

«البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، وسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، أفلا تدل على اللطيف الخبير».

فإذا كان العقل والمنطق يكفيان في إثبات الكثير من الحقائق، فثمة مواضع وحقائق لا يكفي فيها المنطق، ولا يقدر عليها العقل وحده، وهو ما يجعلنا في حاجة دائمة وماسة إلى القلب والمشاعر في إدراك وإثبات ما يعجز عنه العقل، مما يجعل للتصوف اليد العليا في الوصول إلى أدلة قاطعة عقلية وقلبية؛ بأساليب الإلهام والكشف، والتجليات المنضبطة بحدود القرآن والسنة.

وليس ثمة تعارض بين التصوف وعلم الكلام؛ بل تكامل وترابط، فعلماء الكلام - كما أسلفنا- ليسوا فلاسفة في اعتماد العقل وحده، بل يمزجون العقل بالنص، والشريعة بالحقيقة.

وتُحدثنا حوادث التاريخ عن كثيرٍ من علماء الكلام الذين اعتمدوا أفكار الصوفية وآراءهم منهاجًا وواقعًا، فعلم الكلام يرتقي بالذهن والحواس إلى درجة من النضج تلبي جزءًا لا يستهان به من حاجات الإنسان.

ويأتي ذلك التكامل بين التصوف وعلم الكلام من جهة أن العقل له قدرات محدودة؛ لاسيما فيما يتعلق بالعلوم الباطنة والغيبيات وما وراء الطبيعة، وعالم الملكوت، فيقف العقل والذهن عند حدوده، ولا يستطيع تجاوزها، وهنا يأتي دور التصوف ودور القلب عبر وسائله الخارقة للطبيعة في المعرفة كالكشف والإلهام، والسوانح القلبية والتجلي.

ليس ذلك فقط، فحتى الإدراكات العقلية والذهنية لابد أن تمر بالأحاسيس والمشاعر حتى تدرك كنهها وتصل إلى حقيقتها.

وما يمكِّن القلب من الوصول إلى درجة مناسبة من الإدراك والكشف هو ذكر الله تعالى بهذا الذكر يقود التصوف كل الناس - على اختلاف قدراتهم العقلية - إلى الإيمان المطلق بوجود الله ووحدانيته.

ويبيِّن فخرُ الدين الرازي- أحدُ أشهر علماء الكلام والمفسرين- هذه الحقيقة قائلًا:

«مهما بدت طرق علم الكلام غير كافية للوصول إلى الحقيقة،

فإنها تبقى الخطوة الأولى المهمة للعبور إلى التصوف، فلا يصل المرء إلى درجة الكمال إلا بعد انتقاله من العلوم الشرعية التي تستند إلى الظاهر، إلى العلوم الباطنية التي تستند إلى معرفة حقائق الأحاديث»[٥١].

ب. التصوف والتفسير

إذا كان موضوع علم التفسير هو الإعراب عن المعاني العميقة المركوزة في آيات القرآن الكريم، وإظهار حقائقه ودقائقه، فإن التفسير بذلك يصبح من أهم وسائل التصوف ومن أنجع أدويته وعلاجاته، فالقرآن هو المصدر الأساسي للتصوف.

وهدف التصوف هو نفسه هدف القرآن؛ الرقي بالشعور الإنساني إلى درجة الإيمان، والوصول بالإيمان إلى درجة الإحسان، وتحلية المؤمن في ظاهره وباطنه وسلوكه بصفات الكمال، وإكساب أحاسيسه ومشاعره وقلبه وعباداته ومعاملاته مَلَكة المراقبة الإلهية، والعيش الدائم بذكر الله.

هذا الذكر الذي هو القرآن، جعله المتصوفة دينهم وديدنهم، وقطب دائرة وجودهم؛ ليلاً ونهارًا، وفي السحر؛ تلاوة وتفكرًا وتدبرًا؛ هو وِردهم اللساني والعقلي والقلبي. وهم بذلك يعيشون

٥١ محمد صالح الزركان، الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص ٧٦؛ نقلا عن: محمد عابد الجابري، بنية عقل الثقافة العربية الإسلامية، ص ٦٢٦.

بالقرآن، ويعيشون للقرآن، ويصير القرآن محورَ حياتهم، هؤلاء هم المتصوفون حقًا؛ الذين ساروا بالقرآن سيرة النبي الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض.

لقد كانت مساهمات أهل التصوف في علم التفسير مساهماتٍ ذاتَ أثر جليل، فقد انتقلوا بهذا العلم نقلة نوعية، وعبروا به من حدود المعاني الظاهرة إلى حدود المعاني الباطنة، ومن المعاني اللغوية إلى المعاني الإشارية، ومن قيود اللغة وحروفها إلى رحابة أعماق المعاني والدلالات.

فمن ضيق الأفق أن نقصر معاني القرآن ونحبسها في إسار الحروف اللغوية والكلمات البشرية ذات المعنى المحدود، فهذه الآيات الإلهية تحتاج إلى طور فوق أطوار العقل لندرك عالمها ورحابة آفاقها؛ لكن ينبغي التنبيه هنا إلى أن هذا العلم -علم التفسير الإشاري- له أيضًا نُظُمه، وثمة أمور لابد من مراعاتها عند تقديم المعنى الإشاري لآيات القرآن الكريم، لعل أهمها أمور ثلاثة:

١. عدم التناقض بين المعنى الإشاري والمعنى الظاهري.

٢. أن يكون المعنى الإشاري الجديد مطابقا للكتاب والسنة.

٣. ألا يخرج المعنى الإشاري عن سياق اللفظ واللغة في الآيات.

ومن أشهر كتب التفسير الإشاري للقرآن:

- كتاب "حقائق التفسير" لأبي عبد الرحمن السلمي.
- كتاب "لطائف الإشارات" للإمام القشيري.
- كتاب "روح البيان" لإسماعيل حقي البورصوي.

إضافة إلى مؤلفات أخرى لكبار المتصوفة ثرية بهذا النوع من المعاني اللطيفة للتفسير الإشاري؛ مثل: كتب ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي.

وفي الحقيقة، كما أن إدراك ذات الله وصفاته ضرب من المستحيل، فكذلك إدراك كل مرامي كلام الله غير ممكن عبر الألفاظ البشرية؛ حتى بالمعاني الإشارية، وكل الذي يمكننا فهمه ونقله هو مجرد حبة رمل من جبل، وقطرة من محيط، وتُعبِّر هذه الآية الكريمة عن هذه الحقيقة أجمل تعبير:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان، ٢٧)

ويبيِّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كلامه أعلى وأعمق من كلام البشر، وأن علمه لا حدَّ له، وذلك كي يسعى الناس جاهدين لفهم معاني القرآن الكثيرة، ولتنفتح لهم آفاق رحيبة في الفهم والتصوف، والغوص في المعاني والدلالات، وقد قال سيدنا محمد ﷺ عن بعض خصائص القرآن الكريم:

"ولا تنقضي عجائبه" (٥٢)

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في معنى الآية:

«من الممكن كتابة ظاهر القرآن الكريم بأُوقية من الحبر، ولكن ليس في الكون شيء يكفي لتوضيح أسراره، حتى لو صارت البحار كلها حبرًا والأشجار كلها أقلامًا».

لقد أوضحت هذه الآية، وكذلك هذا الحديث حقائقَ هائلة، لقد حفل القرآن الكريم بحقائق ومعانٍ لا حصر لها، ثم تناولها بكلمات شديدة الاختصار، أو إشارات عميقة اللطف، إنّ كلماتِ القرآن وحروفَه هي مجرد بذور تحمل في أعماقها عوالم أخرى لا متناهية من الحيوات والعوالم والثمار والفروع، وهي تحتاج إلى قلب سليم خِصْبٍ يستطيع أن يُنمّي هذه البذور.

ولو أن هذه الحقائق كُتبت بشيء من التفصيل أو التوضيح في القرآن لاحتاج ذلك إلى عدد لا يحصى من المجلدات، لكن اللبيب تكفيه الإشارة.

هذه الإشارة هي ما قصده أهل العلم عندما عددوا صفات وشروط العلوم اللازمة التي يجب توافرها فيمن يتصدى للتفسير، وأهمها "العلم الوهبي" أو الموهبة والقدرة الخاصة التي لا تتوافر لأي عالم، فقط توجد لدى العلماء الربانيين؛ الأتقياء الأنقياء الأولياء، أو بمعنى آخر العلماء العاملين.

---

٥٢ الترمذي، فضائل القرآن، ١٤.

ويشير قول عيسى بن مريم عليه السلام إلى هذه الحقيقة: «من عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم»[٥٣]

وهذا يعني أنه طالما ثمة أمراض قلبية، مثل الكبر والغرور والحسد وحب الدنيا، تمنع من فهم آيات الله، ولم تُعالج بالتطهير والتربية الصوفية، فلا يمكن للمرء أن يأخذ نصيبه من أسرار القرآن الكريم، وتوضح الآية الكريمة هذا الأمر بصراحة جلية:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

(الأعراف، ١٤٦)

أي إنه لا ينال أسرار القرآن؛ إلا من تربى على أخلاق القرآن.

ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة

علم الحديث هو العلم الذي يبحث في أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية، وأخلاقه الحميدة.

ويتخذ التصوف -مثل العلوم الإسلامية الأخرى- الحديثَ المصدر الثاني له بعد القرآن الكريم، والأحاديثُ الشريفةُ مصدرٌ شديد الثراء يشرح حياة سيدنا محمد ﷺ بكل ما فيها من أبعاد مادية ومعنوية، وقد لعب دورًا حاسمًا في تكوين التصوف وتطوّره، فالأحاديث الشريفة عن الأمور القلبية مثل الزهد، والورع،

٥٣ أبو نعيم، الحلية، جـ١٠، ١٥.

والإحسان، والتواضع، والإيثار، والصبر، والشكر، والتوكل، هي الأساس والمنطلق لأفكار أهل التصوف ومفاهيمهم.

إن أحاديث الرسول ﷺ وتصرفاته المتعلقة بحياته الروحانية في المسائل التي تتعلق بالتصوف، قد قاربَت بين التصوف وعلم الحديث بحيث وصلا إلى حالة من التماهي يصعب الفصل بينهما.

وقد وضَّحنا في العلاقة بين التصوف وعلم التفسير أن غاية أهل التصوف هي التقرب من الله تعالى والحياة مع القرآن الكريم، ولأن أهل التصوف يعرفون حق المعرفة أن الوصول إلى محبة الله تتحقق بالسير على خطى الحبيب محمد ﷺ، فقد جعلوا اتِّباعه في كل أمر شعارًا لهم، والسيرَ على منهاجه سبيلَ نجاتهم ووصولهم، وبذلك عاشوا السُّنَّة وحققوا معانيها وحصِّلوا كنوزها.

ويلخِّص الشيخ نقشبند طريقته بأنها على نهج السنة النبوية الشريفة وعلى نهج أصحابه من بعده[٥٤]، فهو يقول:

«إن كل ما حصلنا عليه بلطف الله (من العلوم الباطنة)، كان حصيلة العمل بآيات القرآن الكريم وأحاديث سيدنا محمد ﷺ، ولكي نحصل على نتيجة هذه الأعمال، لا بُدَّ من مراعاة التقوى والقواعد الشرعية، والعمل بعزيمة وفق مبادئ أهل السنة والجماعة وتجنب البدع»[٥٥].

٥٤ محمد باقر، مقامات سيدنا نقشبند، البخاري، ١٣٢٨/ ١٩١٠، ص ٥٨.

٥٥ يعقوب الجرخي، الرسالة الأنسية (محمد نذير رانجها)، إسلام أباد ١٩٨٣، ص ١٤.

وهذا العمل بمقتضى أهل السنة، وهذا السير على خطى المصطفى ﷺ هو توجيهٌ قرآني بالطاعة والاتباع والاهتداء والتأسي؛ لكنه في البداية يحتاج إلى المحبة، ثم هو يتطلب النماذج الحية الواقعية التي تقرب المعاني القلبية إلى الأفهام البشرية، وهو ما تُمدنا به كتب الحديث والسيرة مددًا لا ينقطع، كذلك كتب التراجم -سِيَر الصحابة والتابعين والصالحين والأولياء- التي تؤرخ لهذا المدد المستمر، وتُواصِل تتبع امتداد هذه الأخلاق علمًا وعملاً وحياة وواقعًا من لدن الحبيب ﷺ إلى يومنا هذا، لقد كانت حياته ﷺ هي المعيار في التربية الصوفية التي يرعاها أولياء الله، هذا المعيار هو الدليل الحي والواضح على التطابق المطلق بين المنهاج الصوفي وجوهر المنهاج القرآني والنبوي الشريف.

إن التطبيق العملي الواقعي -من لدن أهل التصوف- للسيرة والسنة النبوية، ونقلها من الجانب النظري إلى الجانب الواقعي، هو من تلك الفضائل التي تعكسها حياة أهل التصوف.

ولنذكر هنا بعض الأمثلة:

قال الشيخ أبو يزيد البسطامي لأحد طلابه: «قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلًا مقصودًا مشهورًا بالزهد، فمضوا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون

مأمونًا على ما يدعيه (من أسرار الحق)»(٥٦).

وكان هذا الإمام الرباني معروفًا بشدة اتباعه لسنة الحبيب المصطفى ﷺ في كل حركاته وسكناته، وكان هذا الاتباع وصيتَه لكل من يلقاه أو يربيه، وكان يقول:

«إن السبب الظاهر والخفي لكل ما يمنحنا الله إياه من فيوضات وألطاف، وكل ما يمنحه سبحانه للبشر من جزاء وثواب إنما هو اتباعُ سنة المصطفى ﷺ والسيرُ على خطاه، فهو سيد الأولين والآخرين، وقدوة الله للعالمين، وأسوة البشرية إلى يوم الدين، وأما كل شقاء يلقاه الإنسان فسببه خلل في اتباع السنة، وكذلك أنا فكل توفيقي وسعادتي كان ببركة ذلك التأسي والاتباع، وأذكر أني ذات مرة دخلت الخلاء غافلاً بقدمي اليمنى، فحرمت سائر يومي هذا من صفاء روحي»(٥٧).

هذا الإمام الرباني طلب من أحد مريديه يومًا أن يحضر بعض زهور القرنفل من الحديقة، فجاءه المريد بست زهرات، فبدت علامات الحزن على الإمام، وقال: «ما فتئ طلابنا غير مكترثين بحديث سيدنا محمد ﷺ الذي يقول فيه: "**إنَّ الله وِتْرٌ**

٥٦ القشيري، الرسالة، ص٥٧، ٤١٦-٤١٧.

٥٧ الكِشمي، البركات الأحمدية، ص١٩٧.

يُحِبُّ الوِتْرَ"[٥٨]، من المستحب أن نطبق هذا الحديث في أمورنا كلها، ماذا يفهم الناس من كلمة مستحب؟ المستحب هو الشيء الذي يحبه الله ﷻ، أي إذا ما أُعطيت الدنيا والآخرة كلها للمرء مقابل عملٍ يحبه الله تعالى، فلا قيمة لهذا العطاء مطلقا، وبما أننا نتَّبع المستحب بهذا القدْر، فإننا نبدأ بخدِّنا الأيمن قبل الأيسر أثناء غسل وجهنا، لأن المستحبَ التيامن في كل الأعمال»[٥٩].

وكتب الإمام الرباني في إحدى رسائله:

«نحن العاجزون المفلسون قد شرفنا الله تعالى وارتفعت راية عزنا باتباع سيد الخلق محمد ﷺ، الذي ما زالت تبدو أنواره وصفات كماله منذ أن كان في ضمير الغيب مضنونا به في عليين على الأرضين، وحتى أظهره الله على كونه، وجعل في محبته واتباع سنته لذةَ الدنيا وما عليها، ولذةَ الكون وما فيه، ولذة الآخرة وما تخفيه؛ بل لذة أسرار الملك والملكوت، كل ذلك منوط بتحقيق شريعته بأدق التفاصيل وبأعمق الأدب الجليل.

وعلى سبيل المثال فإن القيلولة -النوم في منتصف النهار- كسُنة، هي أفضل ألف مرة من إحياء ألف ليلة على غير سُنة، وكذلك الإفطار يوم عيد الفطر اتباعًا للسنة، أفضل وألذ و أرجى

---

٥٨ مسلم، الذكر، ٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٨.

٥٩ الكشمي، بركات، ص١٩٨؛ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٨٠-١٨١.

من صيام الدهر كله؛ بل إن شِق تمرة تتصدق بها اتباعاً، أثقل في الميزان من إنفاق قناطير مقنطرة من الذهب تنفقها ابتداعًا»[٦٠].

ويقول الشيخ موسى أفندي قدس الله سره:

«إن الارتقاء الحقيقي هو بمعرفة العبد أنه أمام نظر الله وسمعه، وتطبيق السنة المطهرة»[٦١].

«والحقيقة التي ينبغي علينا الوقوف عليها بقدم راسخة، وإدراكها تمام الإدراك، أن نجاتنا يوم الدين، وأن سعادتنا في عليين، إنما تكمن في اقتدائنا بسنة النبي ﷺ في كل أمرنا، قولاً وفعلاً وعملاً وحركة وسكونا، وأن يحمل الدم الجاري في عروقك سنته إلى كل خلايا جسدك، فتحيا بها، وتحيا لها، وتحيا عليها»[٦٢].

واتباعًا لهذه السنة؛ كان السائرون على طريق الترقي يجمعون الأحاديث للتربية تحت مسمى " كتاب الزهد" حتى قبل أن تقنن مناهج التصوف، وتبرز قواعده كعلم. وكذلك أثرى المتصوفون علمَ الحديث والسيرة بما قدموه من المعاني والإشارات ولطائف الإدراك والاتباع. كما أن كبار المتصوفة وعلماءهم أثروا علوم الحديث بمؤلفاتهم؛ مثل:

٦٠ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ١١٧، رقم: ١١٤.

٦١ صادق دانا، سلطان العارفين، ص١٩-٢٠.

٦٢ صادق دانا، Altınoluk Sohbetleri (مجالس الميزاب الذهبي)، جـ١، ١٨٤.

الحكيم الترمذي، والقشيري، وابن عربي، والكلاباذي..

وثمة علماء متخصصون في الحديث تبنوا المنهج الصوفي في قواعدهم، فهاهو الإمام البخاري الذي يُعد صحيحه أصح الكتب المصنفة؛ كان إذا أراد أن يُدوِّن حديثًا في صحائفه؛ بعد أن يتتبع أسانيده ويتحقق من متنه، نراه يصلي ركعتين حتى يثبت قلبه، ويستكين فؤاده، فيدوِّنه قانعًا مطمئنًا[٦٣].

وها هو الإمام الزاهد المحدِّث الفقيه أحمد بن حنبل، روى ثلاثة أحاديث شريفة تلقاها عن النبي في رؤية منامية[٦٤].

ث. التصوف والفقه:

الفقه لغة: المعرفة والفهم والإدراك لدقائق الأشياء، أما اصطلاحا فقد مر مفهوم الفقه بتطور تاريخي، فبداية كان يعني العلوم الدينية والدنيوية، ثم اختص بما يجب على المسلم عمله، وهو التعريف الذي قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان:

"معرفة النفس ما لها وما عليها".

وأطلق على علوم العقيدة اسم "الفقه الأكبر" لأنها تعلقت بمعرفة الإنسان لربه سبحانه.

---

٦٣ انظر: ابن حجر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص٤٨٩؛ ابن حجر، تغليق التعليق، جـ٥، ٤٢١.

٦٤ انظر: مجموعة الأحاديث، ورقة: ١١٠ أ، ١١٢ب.

ثم توسعت العلوم الفقهية، وتفرعت، فاقتصر الفقه على الأحكام العملية للعبادات، والأمور القضائية للمعاملات، والشروط الظاهرية لصحة العبادة.

وفي الجهة الأخرى يتابع التصوف الشروط الباطنية لصحة العبادات والمعاملات، ويتابع الشروط القلبية لصحة السلوكيات، ويُعَدُّ التصوفُ تلك القواعد الباطنية التي تصحح ذلك كله، ولهذا فإن التصوف يُطلق عليه اسم "فقه الباطن"، أو "الفقه الوجداني"؛ لأنه يمثل القاعدة الروحانية لعلم الفقه، وهو كنهه وجوهره.

والشريعة تضع للعبادات شروطًا ظاهرية وشروطًا باطنية، فما يتعلق أداؤه بالحركات الجسدية، كذلك يتعلق قبوله بالمشاعر القلبية، وعليه فإن قواعد الفقه لا تنفصل عن قواعد التصوف، بل يكمل أحدهما الآخر، وكلٌّ منهما يؤدي دوره المنوط به.

ففي الوقت الذي يبحث الفقهاء ويدونون أحكام العبادات، مثل الصلاة والصيام والحج، وأحكام المعاملات، مثل النكاح والطلاق والتجارة والقصاص، يُعطي المتصوفون بالمقابل أهمية لأداء هذه الأحكام جنبًا إلى جنب مع المؤثرات المعنوية، مثل الزهد والتقوى والإخلاص، ويعطي القرآنُ أهمية أكبر للجانب المعنوي من العبادات، ويوجِّه العبد إلى الزهد والتقوى.

وقد كان الكثير من المتصوفة، مثل الغزالي، وابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، علماءَ وفقهاء ضليعين في العلوم

الظاهرية، وهناك أيضا الكثير من العلماء في السلسلة النقشبندية، مثل يوسف الهمداني، والشيخ نقشبد، وعلاء الدين العطَّار، ويعقوب الچرخي، ودرويش محمد، والإمام الرباني، وخالد البغدادي، قد وصلوا إلى الذروة في العلوم الظاهرية وأجيزوا فيها، وقد أطلق أهل العلم في السلسلة النقشبندية على هذه الشخصيات اسم «خواجكان» أي «الأساتذة» لأنهم تعلموا في المدارس الدينية.

وتعلُّم علم الظاهر لا يغني عن تعلم علم الباطن، وقد ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين: فمِن الحنفية كابن الهمام، وابن الشلبي، والشرنبلالي، وخير الدين الرملي، والحموي محشي الأشباه وأمثالهم؛ ومن الشافعية كسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والإمام الغزالي، وتاج الدين السبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والعلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي المكي وأضرابهم؛ ومن المالكية كالعارف أبي الحسن الشاذلي، وخليفته الشيخ أبي العباس المرسي، وخليفته الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري، والعارف ابن أبي جمرة، وناصر الدين اللقاني، والشيخ العلامة المحقق العارف أحمد زروق البرلسي وغيرهم؛ ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر الجيلي، وشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي، والشيخ ابن النجار الفتوحي وغيرهم.

وثمة علماء مشهورون منتسبون للنقشبندية، مثل السيد الشريف الجرجاني، والملا الجامي، وعبد الحكيم السيالكوتي، وعبد

الغني النابلسي، وابن عابدين، وشهاب الدين الآلوسي، وهؤلاء العلماء الأجلَّة بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن وتلقيها عن أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك[٦٥].

وثمة كلمة مأثورة عن بعض السلف توضح الكثير من الأمور، وتضع الكثير من القواعد، وتنفي الكثير من الخبَثَ، يقول الامام مالك:

«من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق»[٦٦].

ويذكر عبد الخالق غجدواني أن المرء الذي يصل إلى مرتبة فناء النفس هو من يحمل القرآن الكريم بيده اليمنى والأحاديث الشريفة بيده اليسرى، ويسلك سبيل الهداية بنوريهما[٦٧]، وينصح أحد مريديه قائلًا:

٦٥ العلامة محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، اسطنبول ١٤٠٣، ص٢٥-٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص٦.

٦٦ أحمد زروق، قواعد التصوف، القاعدة، ٤؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت،١٤٢٢، جـ١، ٣٣٥؛ شرح الشفا، بيروت ١٤٢١، جـ٢، ٥١٠؛ الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر ١٣١٥، جـ٢، ١٥٦.

٦٧ عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرة القدس (التحقيق: محمود عبيدي)، طهران ١٣٧٥، ص٣٨٤.

«تعلم علم الفقه والحديث، وابتعد عن الجهَّال من المتصوفة»[٦٨].

فإدراك المعنى الكامل للإسلام والعيش بمقتضاه يتحقق بوحدة العلم والعرفان، والجمع بين الفقه والتصوف، أي بين علوم الظاهر والباطن.

أما من يدعي التضاد بين التصوف والفقه، أو يتوهم التعارض بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، أو يرى البون شاسعًا بين الأحكام الدينية والتربية الصوفية، فهؤلاء قليلو العلم والعمل، محدود الإدراك والشعور، أصابهم الجهل أو قيدهم التزمت أو أعمى بصيرتهم وأبصارهم الكِبر، وهو ما أدى -في بعض فترات التاريخ- إلى التشوه الذي أصاب العلاقة بين الجانبين.

وخلاصة القول في العلاقة بين التصوف و بقية العلوم الإسلامية أن التصوف جزء لا يتجزأ من تلك العلوم، وهو عضو فيها كسائر أعضاء الجسد الواحد.

---

٦٨ عبد الخالق غجدواني، الوصايا، مكتبة بيازيد العامة، قسم ولي الدين أفندي، الرقم: ٣٢٢٩، الورقة: ١١أ.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

(فصلت، ٥٣)

٢. التصوف والعلوم الطبيعية

للوهلة الأولى قد تجد تناقضًا بين التصوف والعلوم الطبيعية، فالعلوم الطبيعية الخاضعة للنتائج المعملية وأبحاث المختبرات بعيدة كل البعد عن العلوم الميتافيزيقية، أما التصوف فهو مغرق فيما وراء الطبيعة.

لكن الحقيقة غير ذلك، فكلاهما له هدف واحد، وهو الوصول إلى الحكمةِ من وراء الخَلْق، والعلةِ من وراء الموجودات، وإدراك الأسرار الكامنة في الكائنات، وإشباع شغف الإنسان بالاطلاع الأمثل والأشمل على الكون وخالقه؛ أي الانتقال من عالم المشاهدة إلى عالم الشهود، من الـمُلك إلى الملكوت.

والعلوم الطبيعية ومكتشفاتها وعالمها المادي هو المرحلة الأولى للوصول إلى عالم الحقيقة، وهو الأدلة الأولى والدائمة على عظمة الخلق وقدرة الخالق.

كما أن الإسلام في تعامله مع المخلوقات -عاقلة وغير عاقلة- يهتم بالنواحي الميتافيزيقية كما يهتم بالنواحي الطبيعية، والنبي ﷺ كان يأمر بالرفق ويتعامل به في شأنه كله حتى مع الجمادات، وها هو جذع النخلة الميت يحنُّ إليه، والجمادات في طريقه تسلم عليه.

والاكتشافات العلمية كلَّ يوم تقرب المسافة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، وتوثق الصلة بين الفيزياء والميتافيزيقا، وتنفي كل القواعد الجامدة التي وضعها اللادينيون في العلوم الفيزيائية الطبيعية، فنظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع محكوم عليها بالفشل والقصور من يوم ظهورها، وقانون بقاء المادة وبقاء الكتلة للكيميائي الفرنسي أنطون لافوازييه ذهبت أدراج الرياح بعد تمكن الإنسان من تفتيت الذرة، التي تفتت معها مسلمات قديمة طال النزاع فيها بين العلم والدين حول "قِدَم المادة" وبقائها وفنائها، فأثبت العلم أن ذلك كلَّه مجرد "طاقة"، وأن وجودها "عرضي" مؤقت، وليس بقديم.

واكتشاف الجينات وما تحمله من مورثات أو كروموزومات تحتوي على أسرارٍ وخصائصِ الشخصية دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وعلى عظمة كتابه الكريم الذي أشار إلى هذه الحقائق بشكل ميتافيزيقي، ليؤكد لنا الترابط بين العالمين المادي والمعنوي، وليؤكد الصلة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ولم يكن التباعد بينهما سوى قصورٍ في العلم، واحتاج اكتشافُ ذلك التقارب أو التواصل

إلى مرور الأزمان المتطاولة، واكتشاف حقائق معجزة لإدراك حقائق قرآنية ثابتة وكامنة وراء الألفاظ والتعبيرات القرآنية.

لكنَّ المسلمَ الحقيقي مؤمن منذ البداية بعظمة خالقه، كما أنه مقرٌّ بعجز نفسه البشرية عن فهم كل معاني هذه القدرة.

وفي القرن التاسع عشر كتب ضياء باشا بيتَين من الحكمة:

سبحان من تحيَّرت في صُنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول

لكن المسلم موقن بأن المعجزات الكونية التي يتوالى ظهورها لن تنقطع، وأن تكشّفها المستمر هو أدلة جديدة ومتجددة تناسب الزمان والمكان والعلوم والأفهام، وأن كل اكتشاف جديد يؤكد عجز الإنسان أمام صُنع الخالق وعظمته، ولا يبقى مفرٌّ له من الاعتراف بالحِكم اللانهائية وراء تلك الصنعة والعظمة، وقد أوضح ضياء باشا هذا العجز البشري خير توضيح حين قال:

العقل المحدود لا يطيق ولا يُدرك الغيوب والأسرار

كالميزان الصغير لا يحمل ما ثقل من الأوزان

وهذا يجعل التصوف مرحلةً متقدمة وتالية للعلوم الطبيعية في بحثه عن أسرار الكون، وسعيه وراء الحكمة الكامنة في الكائنات، وها هو القرآن الكريم يلفت الانتباه في كثير من مواضعه إلى الأسرار والحكم في الكائنات، فقد قال الله ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

وتشير كلمة «الآفاق» في الآية الكريمة إلى العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان، أما كلمة «أنفسهم» فهي تشير إلى الحِكَم والعِبَر والأسرار في بنية الإنسان المادية والروحية ويزيل الله تعالى غفلة العباد، ويستلفت انتباههم بقوله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان، ٣٨-٣٩)

ويبين الحق تعالى في آية أخرى -بعد أن أظهر فيض قدرته واستمرارها- أنه قد خلق الإنسان مثل الكائنات الأخرى لغاية:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

ففي كل ذرة من الذرات تجليات رائعة للصنعة الإلهية.

ويمتلك التصوف بفكره ومعنوياته القدرةَ على صياغة تصورٍ كلي شامل يجمع حقائق الكون الطبيعية والميتافيزيقية، ويجعل

الإنسان في مركزها، ثم هو يحقق هذا التصور واقعيا، وينقله من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق عبر أساليبه التربوية المعتمدة أساسا على "ذكر الله"، ثم الرياضات الروحانية الأخرى.

هذه الرياضات التي تمنح العقل والقلب وأدوات الحس قدراتٍ أكبرَ على إدراك العلوم والحكمة من ورائها.

ثم إنَّ الكونَ كله في عين المتصوفة ما هو إلا موضع لتجلي وجود الله وأسمائه وصفاته، وما هذه المخلوقات والموجودات سوى نوع من الإبداع الفني للخالق سبحانه، وإن أبسط المشاهدات التي تتكرر أمام نواظرنا كل يوم بشكل عادي غير ملفت تحمل في طياتها وظاهرها أعظم المعجزات الناطقة بقدرة الله والداعية إلى الإيمان العميق به ﷻ.

فها هي ورقة التوت الخضراء؛

- يأكلها الغزال فيعطينا المسك.
- وتأكلها دودة القز فتعطينا الحرير.
- وتأكلها البقرة فتعطينا لبنًا سائغًا للشاربين.
- وتأكلها الضأن فتعطينا لحمًا ودهنًا.

وغيرها، وغيرها من المخلوقات والعطاءات، الورقة واحدة، ولكن الإبداع لا يحصى، فإذا انتقلت إلى غيره من النباتات والأوراق والأعشاب، وجدت الأصل الذي تستمد منه حياتها

وغذاءها واحد: الطين والضوء، ثم تختلف ألوانها وأشكالها وطعومها وأريجها، ألا يجعلك ذلك تتوقف مندهشًا أمام إعجاز الله وقدرته وتجلياته؟!

لقد خُلق الكون نتيجة تجلي الأسماء الحسنى، مثلما تجلت في القرآن وفي الإنسان، وما من شيء في الكون خُلق عبثًا، هذا ما يؤمن به أهل التصوف إيمانًا عميقًا.

لذا فالتصوف يأخذ بيد العلوم الطبيعية في بحثها عن الحِكمة الظاهرة لله سبحانه في هذا الكون، وهي ذلك التجلي؛ إذ تقف العلوم عاجزة، فلا تدرك تلك الأسرار والحِكم والمعاني، وهنا تلتقي مع التصوف الذي استطاع بالذكر والرياضة الروحانية أن يوسع مداركه، ويطور معارفه القلبية، فيكمل المسيرة في التعرف على الحكمة، وإدراك أسرار التجلي.

(التصوف هو من أوجد الأدب التركي وطوَّره وارتقى به.) نهاد سامي بانارلي

٣. التصوف والأدب

الذي يتبادر إلى الذهن أن الأدب لصيق الصلة بالتصوف، وهذا حق، فالتصوف مجاله عالم القلب والروح والمشاعر، وهي الساحات نفسها التي يعمل فيها الأدب عمله، يصدر عنها، ويخاطبها،ويزدهر بها، ويؤثر فيها، أي إن كلاهما يؤثر في الآخر ويُثريه، وهو ما حدث بالفعل مع الأدب التركي الذي ارتقى قممًا شامخة من الرقي الفني، وترسخت أقدامه في مجالات أعمق من الشعور الإنساني، وامتدت آفاقه وآثاره إلى الكثير من مجالات الفكر.

وقد تفاعل الأدب وتشكل وتطور مع ما تميزت به أساليب الحياة الصوفية، فمثلاً هناك ما يسمى "أدب التكايا"، والذي أنتج صورًا مميزة من الأنواع الأدبية، مثل الشعر الغنائي والشعري التعليمي، وأنواعًا أخرى بسيطة سلسة عكست القيم الصوفية، وعبرت عنها، وصارت قوالب لها توصلها في صورتها الراقية إلى جمهور عريض من المريدين، فكان منها نوع يُدعى "التوحيد" وهو الذي يبين معني التوحيد، ويتناول ذات الله تعالى وصفاته وأسماءه، ونوع آخر يُدعى "المناجاة" وهو يشمل التوجه إلى الله تعالى ودعاءه ومناجاته وذكره تعالى

بلهفة وشوق، ونوع ثالث يُدعى "النعت" وهو مختص بالمدائح النبوية، وذكر صفات وأخلاق النبي ﷺ، وحبه، والشوق له.

وكان لهذه الأنواع الأدبية دور كبير ومؤثر في دعم القيم الصوفية نشرًا وتقوية وتشجيعًا ومواساة، فهي تنشرها بين العامة والخاصة على نطاق أوسع، وتمس حبات القلوب بأدوات أوقع، وتعالج المشاعر الإنسانية بالعلاج الأنجع، وترتقي بها إلى درجات أرفع، وتجمع الناس على حالة شعورية جماعية من الأخوة والتكاتف والمحبة، وتضرب في ذلك الأمثلة الأروع، كل ذلك في أشكال من البلاغة والأدب المبدع.

وها هو ذا شعر "يونس أمره" ما زال يقدم للناس المواساة والطمأنينة منذ أن قاله مع كارثة الاجتياح المغولي قبل سبعة قرون.

وغيره من الأولياء ذوي الإنتاج الشعري والأدبي أمثال: الشيخ أحمد اليسوي، والولي حاجي بيرام، وأشرف أوغلو الرومي، وعزيز محمود هدائي، قدس الله سرهم جميعًا، فقد نقلوا التصوف ومعانيه وقيمه من الخاصة إلى العامة، وجعلوها متاحة للجميع، يفهمونها ويدركون معانيها، ويتفيؤون ظلالها، ويلجؤون إليها.

ولا نُغفل هنا "أدب الديوان" ببحوره وأوزانه وعَروضه، فقد أثراه شعراء الصوفية بقصائد ودواوين خالدة؛ ما زالت نبعًا ثرًا يحتذيها الشعراء، ويتغنى بها المنشدون إلى يومنا هذا، إضافة إلى الأعمال الأدبية النثرية الأخرى.

كل نوع من هذه الأنواع الأدبية الصوفية يأخذك إلى عالم مختلف من المشاعر والأحاسيس:

- ففي "التوحيد" تأخذك الروح الجياشة إلى آفاق رحيبة من معاني الأسماء والصفات، وتسمو بك إلى حالة من العشق الإلهي المتماهي في ذاته سبحانه، وتلك هي قصائد التوحيد التي كتبها المتصوفة تحلق بك في فضاء إيماني شاسع وبعيد، تنال فيه فيوضات لم تدركها من قبل.

- وفي قصائد "النعت" تحيا معاني الوله والعشق للرسول النبي ﷺ، والاشتياق إلى رؤيته والتغني بسيرته وسنته، فتبدو هذه القصائد وكأنها لوحاتٍ رائعةً نقشت على جدران الأفئدة، وها هو الشاعر "فضولي" في إحدى قصائد النعت، وهي "قصيدة الماء" يقول معبرًا عن الاشتياق للحبيب النبي ﷺ:

يقضي الماء عمره كي يصل إلى غبار قدميه

جاريًا بلا هدف من صخرة إلى أخرى سعيًا إليه

وهناك مجموعة من الشعراء مثل: جلال الدين الرومي، وفضولي، ونائيلي، ونابي، ونحيفي، والشيخ غالب، وشعراء عظماء آخرون كتبوا مؤلفات نبعت من قلبٍ يهيم بالنشوة الصوفية.

ومع اقتران الأدب الراقي بالمشاعر الصوفية السامية، ومشاعرها العميقة أنتج لنا التقاء هذين العملاقين محتوىً ضخمًا في ثرائه وعمقه؛ ينهل منه القاصي والداني، ويشبع رغبات الجميع على اختلاف الأذواق والأمزجة والأفهام والمشاعر.

وقد أوضح نهاد باناري المختص في تاريخ الأدب هذه الحقيقة بقوله:

«التصوف هو ما أوجد الأدب التركي وطوَّره وارتقى به».

ولعلَّ الشاعر "نديم" المعروف بميوله الدنيوية قد كسب شهرته حيث برع في أدب "النعت"، وكذلك الشاعر "توفيق فكرت" العلماني اشتهر في الساحة الأدبية بعد أن كتب أشعاراً في أدب "التوحيد". وهذه هي نتيجةٌ مباشرة لهذا التطور والرقي الذي ارتقى بالأدب التركي إلى العالمية.

لم لا، وقد جاء الحديث النبوي مؤيدًا للأدب والشعر؛ داعمًا لتوجه الشعراء والأدباء في توجيه الناس والدفاع عن الدين، وإلهاب حماس المقاتلين والمجاهدين.

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ -أو قالت: ينافح عن رسول الله- ويقول رسول الله ﷺ:

"إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر، أو ينافح عن رسول الله"[٦٩]

إن وقوف جبريل عليه السلام مع الشاعر حسان رضي الله عنه في هذا الموضع يُبيِّن أن الحق تعالى يُلهم الشاعر الذي يسير في طريق الله ويؤيده بتأييده.

٦٩ الترمذي، الأدب، ٧٢؛ أبو داوود، الأدب، ٨٧.

إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف، واستمدت رهافتها من رقة قلوب المتصوفة؛ أبدعت أعمالاً فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارات الإنسانية.

٤ . التصوف والفنون الجميلة

الفن هو انعكاس المشاعر الإنسانية على الأشياء المادية، وتشخيص هذه المشاعر والمعنويات في صورة ملموسة تدركها الحواس سمعًا وبصرًا، ومهما اختلفت وتنوعت هذه الفنون فهي في الأساس نابعة من روح الإنسان المبدع، وكلما رقت هذه المشاعر وتعمقت وسَمَت انعكس ذلك على رقي تلك الفنون وتأثيرها.

إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف، واستمدت رهافتها من رقة قلوب المتصوفة؛ أبدعت أعمالاً فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارات الإنسانية.

ويقدم لنا التاريخ الأدلة الدامغة والكثيرة على ذلك، فالشعوب التي بنت الحضارات الإنسانية المتنوعة، لم تبنها فقط في عالم السياسة أو الاقتصاد أو القوة العسكرية، إنما الحضارات ذات الأثر الأبقى عبر الدهور شاخصة ماثلة للأعين؛ هي الحضارات ذات المعالم الفنية.

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفصيلي للنماذج الصوفية التي تجلت في فنون الحضارات، ولكننا سوف نعرض هنا باختصار لنماذج من الفنون التي تأثرت بالتصوف، وهي:

- الموسيقى. - العمارة. - الخط.

أ. التصوف والموسيقى:

الإسلام دين الفطرة، وهو يدعم من هذه الفطرة ما يرتقي بالإنسان إلى السمو الروحي، والموسيقى شأنها شأن المزايا الطبيعية الممنوحة للإنسان، لا يمكنه أن يرفضها كلها، ولا أن يقبلها كلها، إنما ينتقي منها ما يناسب فطرته، ويرتقي بمشاعره، وتصبح بالفعل فنونًا إبداعية تخدم الروح وتسمو بها، ولا تهوي بالنفس إلى منازل الشهوات.

والتصوف استخدم الموسيقى في هذا المضمار الذي يسمو بالروح، ويغذي النفس، وفي الإطار الذي يقع داخل حدود الآداب الإسلامية، وإلا رفضوها، والطرب الذي في الموسيقى يوظف لإطراب الروح ودعم حالة الوجد التي تسعى إليها؛ سواء كان ذلك مصاحبًا لقصائد المدح أو المنظومات الشعرية الصوفية الأخرى، التي تحمل قيم التصوف وآدابه ومعانيه، وتزيد من رغبة المستمع في الإقبال على العبادة والطاعة والذكر لله تعالى، وهي تمنح القلب مشاعر وفيوضات إذا هي وُجدت في ظروف وأحوال

خاصة؛ يراعى فيها المكان والزمان والأنغام والحال؛ كل ذلك يضفي على الحال جوا من الروحانية الخاصة التي يستغلها أرباب التربية الصوفية في الوصول بالمستمع إلى حالة شعورية صوفية تجعله مقبلا على طاعة، مدبرا عن معصية، متلقيا لمعانٍ وقيم، متخليا عن أفعال وأفكار؛ في حالة من الوجد تسمو بروحه إلى عالم أرحب بعيد عن دنيا الشهوات، محلقا في آفاق الذكر والفكر في ذات الله ﷻ.

وقد استخدم المتصوفة الموسيقى ذلك الاستخدام على مدار قرون، مع الوسائط الأخرى حتى ظهر على الساحة الفنية نوع جديد خاص يُسمى "الموسيقى الصوفية".

وثمة خلاف دائر بين القوم في استخدام الموسيقى وسيلةً للتربية، ما بين مؤيد لاستخدام الآلات الوترية ومعارض، وما بين رافض لآلات الضرب وموافق؛ مستندين إلى الآراء الفقهية وما ورد في السنة من أدلة وشواهد.

وبعيدًا عن الدخول في جدل فقهي وتربوي حول تفاصيل الجواز والمنع في الموسيقى وأنواعها وآلاتها، نقول إن الصوت الجميل الندي تميل إليه الآذان، وتنجذب إليه القلوب، وذلك طبعاً ضمن الالتزام بالآداب الإسلامية والحدود الشرعية، ولا ينكر أحد أن الاستماع لأذان الصلاة من صوت خاشع جميل يجعل الإقبال أشد على صلاة الجماعة في مسجد ما دون غيره، وفي إشارة

إلى معاني الجذب المعنوي بالصوت الرخيم اختار النبي ﷺ مؤذنه بلال بن رباح ليرفع النداء لأشرف أعمال الإسلام... الصلاة، رغم أن صاحبي الاقتراح -عبر الرؤيا الصادقة - كانا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وظل بلال رضي الله عنه صاحب الصوت الرائع مؤذنًا للرسول النبي طوال حياته الكريمة.

ومن جهة أخرى؛ لابد لنا من الاعتراف بأن الموسيقى - كوسيط - يمكن استغلالها استغلالاً سيئًا في الشر، فتصبح مزمارًا للشيطان، ودعوة للمعصية وإثارة شهوات النفس؛ لاسيما في زماننا هذا. وإليك القول الفصل في هذه المسألة:

يقول الشيخ مسافر الخوارزمي وهو أحد مُريدي الشيخ بهاء الدين نقشبند قدس الله سرَّه:

حين دخلت في خدمة سيدنا بهاء الدين كنت مولعًا بالسماع، وفي يوم من الأيام تحدثنا مع جماعة من الإخوان، واتفقنا على أن نُحضر المزامير والدفوف والناي، ثم نؤدي السماع في مجلس سيدنا بهاء الدين لنرى ما رأيه في هذا الموضوع، وجلبنا مجموعة من المنشدين ذوي الصوت الجميل الذي يلطِّف القلوب، فلم يمنعنا سيدنا من ذلك لكنه قال في النهاية:

«إننا لا نفعل هذا، ولكن لا ننكره أيضًا»[٧٠].

٧٠ مولانا علي بن حسين الصفي، رشحات، إسطنبول ٢٠١٠، ص١٣٩.

يشير كلام الشيخ نقشبند قدس الله سرَّه هنا إلى ضرورة أخذ الحيطة في هذا المجال لأن ذلك قد يتحول إلى آفة نفسية، لذلك علينا أن ندرك أن الاحتياط في هذا الموضوع مهم جدّاً، لأن الناس في أيامنا هذه لا يحافظون على التوازن والاعتدال، ويرون أن الأمر كله هو عبارة عن موسيقى فيغرقون فيها، ويبتعدون شيئا فشيئا عن جوهر التصوف.

ب. التصوف والعمارة:

رغم أن العمارة تعتمد على الهندسة والحساب والحجر والخشب؛ إلا أنها من أرقى الفنون الجميلة، فهي تحول هذه العلوم الرياضية والمواد الصماء إلى أرقى أنواع الفن وأسمى آيات الجمال حين تمزج علوم الرياضيات والهندسة بالمشاعر القلبية، والمواد الخشبية والحجرية بالذوق الرفيع، فتصير المعاني مجسدة في مباني.

لذا كان للعمارة قيمة كبيرة لدى أهل التصوف، وإذا ضربنا على ذلك مثالاً حيًا بواحد من أشهر مساجد العالم الإسلامي، وهو مسجد وكلية السليمانية -في إسطنبول- وحللنا خصائصه المعمارية في إطار المفاهيم الصوفية، يمكن بكل وضوح رؤية انعكاس روح الإسلام فيهما، والتمازج الروحاني الباهر بصورة تأخذ الألباب، وبعض الرموز الصوفية التي وُضعت بأسلوب ماهر في هذا المكان، فالقبة المركزية والقبب الصغيرة حولها صممت تصميمًا في

غاية الإتقان، ويتدرج المسجد في العلو بدءاً من أرضيته لتصل في النهاية إلى القبة المركزية التي ترمز للوحدة الإلهية «الوحدانية»، أما القبب النصف دائرية والقبب الصغيرة الأخرى المنسجمة مع القبة المركزية فهي تُبرز سرَّ مبدأ من مبادئ التصوف وهو: «في الوحدة كثرة، وفي الكثرة وحدة».

إن مسجد السليمانية في الحقيقة يجسِّد لطافة مفهوم الروحانية بصورة غاية في الجمال، حيث إنه يرمز إلى الانتقال من التفرعات الكثيرة إلى «الوحدة» الإلهية، ثم العودة من تلك «الوحدة» إلى التفرعات (الكثيرة) مرة أخرى.

وترمز القبة الكبيرة في هذا المسجد إلى النبي ﷺ، فالقبة التي تعكس تلاوة القرآن الكريم في المسجد الشريف والأدعية فيها على المؤمنين هناك، تُمثِّل رسول الله ﷺ الذي تلقَّى الأوامر من المولى جَلَّ جَلَالُهُ وبلَّغها لأمته.

أما المنارات السامقة فتبدو وكأنها أيادٍ للمسجد الشريف ترتفع إلى السماء داعيةً الله عَزَّ وَجَلَّ ومبتهلةً إليه.

ويبرز في المسجد المركزي تأثير الجو الداخلي على حالة الإنسان الروحانية، ويزور هذا المسجد التاريخي الكثيرون من أديان مختلفة، ويشهدون بتأثرهم بالجو الروحاني الذي يستشعرونه هناك، وتتلقاه أرواحهم في جو من الطمأنينة والسكينة.

وتشير الروايات إلى أن هذا المسجد العظيم -ومساجد أخرى مشابهة- قد بُنيت بناء على أمرٍ أُخذ في عالم الرؤيا من رسول الله ﷺ، وقد تم تشييد هذه الصروح من ناحية العمارة بنيَّة بقائها قائمة إلى يوم القيامة على هيئة متينة ومحكمة قدر الإمكان.

لقد التقى في هذا المسجد الفريد الجهدُ العظيم مع العبقرية والدقة، ومُزجت فيه السكينة والأصالة بصورة كاملة، فكانت النتيجة لوحةً إبداعية في قمة التناغم والانسجام.

هذا بالنسبة للمساجد، ولكن للتصوف أيضا دور وبنايات أخرى متعددة، فهناك الزوايا والتكايا والرباطات والخانقاوات، وهي وحدات معمارية مميزة تعطي للمدن الإسلامية مذاقًا خاصًا، ومعنى مميزًا، وهي في انتشارها وكثرة أعدادها -على تنوع مساحاتها- تستشعر فيها الكثير من قيم التصوف، التواضع والبساطة، وإنكار الذات والشعور بالفناء، والبعد عن التكلف والفخامة والرفاهية الممقوتة، فهي مصممة فقط لأداء العبادات والنسك على المنهاج الصوفي، وأركانها وجدرانها مشبعة بتلك القيم التي تعكس معانيها الروحية على أشكالها المعنوية.

ت. التصوف وفن الخط:

وفن الخط الذي نعنيه هنا هو فن كتابة القرآن الكريم على أجمل صورة وفقًا لمعايير الجمال، وقد ظهر هذا الفن نتيجة الرغبة

في التعبير عن الجمال الشكلي للحروف القرآنية كنوع من التعبير عن جمال القرآن العظيم.

هذا الفن لقي الاهتمام الأكبر في الوسط الصوفي؛ إذ لعبت الخانقاوات والتكايا دورا شديد الأهمية في رعاية هذا الفن وتطوره واستمراره، حيث كانت دور المتصوفة هي المكان الذي يتعلم فيه الفنانون هذا الفن، ثم يلقنونه لطلابهم.

وقد ساعد الجو الروحاني المهيأ في هذه الدور على الإبداع في هذا الفن؛ إذ هو عمل شاق يحتاج إلى صبر وجهد كبيرين للوصول إلى درجة متميزة من الإتقان في الخطوط والنقوش والزخارف، وبقية العناصر التابعة للخط، كما أن الاستسلام للمعلم القدوة في إبداع ذلك النوع يحتاج إلى ثقة، وإلى أناس من أهل التقوى، يكتبون كلام الله تعالى، وهو أشرف الكلام.

وهل يمكننا تخيل رجل حاد المزاج سيء الأخلاق يوكل إليه أن يكتب شيئًا في حالته تلك؛ ستخرج حروفه حادة كمزاجه؛ سيئة كأخلاقه.

لذا؛ فالتصوف هو الضمانة التي تهذب أخلاق وأمزجة وأحوال مبدعي فن الخط، ويهيئ لهم الجو المناسب لكتابة كلمات الله سبحانه، في تقوى قبل الجمال، وفي ورع قبل التزيين، وفي محبة قبل النقوش، وفي مشاعر وجدانية تلف العملية الإبداعية من أولها إلى آخرها.

والحق أن تقوية الروح هي قاعدة لتنشئة العباقرة الكبار في هذا الفن -وفي غيره من الفنون- في كل وقت، وقد ترعرع أساتذة فن الخط الذين هم قدوة في هذا الفن، مثل الشيخ حمد الله، وقره حصاري، ويساري زاده، ومصطفى راقم، والكثير منهم، ووصلوا إلى النضج عبر التربية الروحية في ظل التصوف.

وها هو واحد من أولئك الفنانين في مجال الخط، ومن المتشربين لأخلاق التصوف، يمزجون التضحية بالعمل، والفن بالتقوى، إنه الخطاط "قره حصاري" الذي قام بكتابة الآيات القرآنية في قبة مسجد السليمانية، فقام هذا الفنان الصوفي بجهد متميز في عمله ذاك؛ حتى فقد بصره مع آخر حروف كتبها.

وعندما أرادوا افتتاح المسجد بعد إتمام الأعمال فيه، قال السلطان سليمان القانوني معربًا عن امتنانه وإعجابه بالعمل الفني الفذ للمعماري الأشهر سنان: "إنه لشرف عظيم للمعمار سنان أن يبدع هذا المسجد الرائع وينشئه على هذه الصورة المبهرة".

فماذا كان رد المعماري سنان على السلطان؛ ذلك المعماري الصوفي الذي تعلم القيم الإسلامية الصوفية قبل الفن، وأبدع فيها قبل أن يبدع في العمارة، فكان إنكار الذات والتواضع وإسناد الحق لأهله هو المسيطر على مشاعر يمكن أن يملأها العُجب والغرور.

لقد رد على السلطان في أدب جم؛ قائلاً:

"سلطاننا العظيم!! إن الخطاط قره حصاري هو الأحق بهذا التكريم؛ لقد قدَّم عينيه فداءً لهذا العمل الرائع، فهلا منحتموه شرف افتتاح هذا المسجد؟".

فما كان من السلطان إلا أن أمر بأن يقوم قرة حصاري بافتتاح هذا المسجد العظيم وسط دموع الإعجاب والانبهار من الحاضرين، دموع الانبهار بالإبداع الفني والخُلُق الصوفي.

ويعود الفضل في تطور فن الخط واستمراريته إلى قواعده ومراعاته للمعايير المعنوية، ومن هذا المنطلق كان الإقبال الكبير على كتابة القرآن الكريم والحلية الشريفة، حيث إنه لم يكن باستطاعة كل خطاط أن يكتب القرآن الكريم والحلية الشريفة إلا إذا وصل إلى ذروة فن الخط، وصار ذلك عرفًا متَّبعًا بين الناس، وهكذا بدت هذه المؤلفات القيِّمة، بجاذبيتها المدهشة التي تلاطف الأرواح والأفئدة، وسيلةً تحثُّ الناس على اتباع أمر الله الذي يقول: «إقرأ».

وقد تعلَّم الطلبة هذا الفن بلا مقابل على مدى القرون، لأنه فن يخدم القرآن الكريم بإخلاص، ولم يكن فنًّا مشوبًا بالمنفعة المادية، لذلك عرف كل خطاط زكاة هذا الفن بتعليم غيره.

وخلاصة القول في علاقة التصوف بالفنون أن المؤمن الذي

يضع نصب عينيه الحديث الشريف: **"إن الله جميل يحب الجمال"**[٧١]، ويدرك معناه، هو الذي يعرف قيمة هذه الفنون، ويدرك ما وراءها من المعاني الروحانية والقيم الإسلامية والمشاعر الصوفية.

فصناعة الجمال تعبر عن الجمال الداخلي للفنان، وعن طهره القلبي وصفائه الروحي، بعد أن يتخلص من دواعي الغرور والإعجاب بالنفس، ويدرك أنه ينقل بفنه صورة من صور إبداع الخالق في كونه، وهو ما يتطلب تربية صوفية عميقة تفجر ينابيع الإبداع في مشاعر هذا الفنان.

---

٧١ مسلم، الإيمان، ١٤٧.

إن لم تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج بك إلى ذلك العالم المنشود

٥. التصوف والفلسفة:

إذا أردنا تعريف الفلسفة بعيدًا عن أصلها اللغوي الذي يعتريه لغط كبير، فإن معناها الاصطلاحي أو المتعارف عليه هو ذلك العلم الذي يسعى إلى وضع أحكام عامة للعلوم كلها، وقواعد كلية للعقل يتوخاها في بحثه عن الحقيقة عبر كل العلوم البشرية الظاهرية.

وعليه فإن الفلسفة هي أم العلوم، محرابها العقل، وديدنها القوانين الطبيعية، ورغم سعيها إلى الحكمة عبر محاولة تفسير الأحداث والعلوم، فإن قصورها ناتج من اعتمادها على العقل وحده، والمبالغة في ذلك أحيانًا إلى درجة تصل به إلى القداسة.

فإذا رجعنا إلى قيمة العقل ومكانته في الإسلام وجدناه أحد الشروط الأساسية للفرائض والعبادات، وهو مناط التكليف؛ إلا أنه ليس المنهاج الأوحد للوصول إلى الحق والحقيقة، بل صنوه الذي لا يفارقه هو "النص"، أو "النقل".

وهو ما يدفعنا إلى القول بقصور العقل منفردًا عن الإحاطة بحكمة "الشارع"، وإدراك حقيقة "الخلق" و"الخالق" سبحانه.

فما السبيل إذًا إلى مواصلة البحث فيما وراء الطبيعة، والكشف عن الحقائق الميتافيزيقية واستكناه علومها؟!

هنا يأتي دور التصوف؛ حيث يوظف الإمكانات كلها: العقل، والنقل، والقلب، والكشف، ثم هو يتخطى إلى أفق أرحب، فيربي العقل تربية روحية تمنحه إمكانات أعلى في الاستيعاب والإدراك، وكذلك تضبط حركة "الكشف والإلهام" بضوابط "النقل" فلا تقبل قدسية العقل، ولا تقبل أيضًا شطحات الكشف؛ إنما تصهر إمكانات الجميع في بوتقة واحدة تكون نتيجتها مقبولة من الجميع، فكرًا وعقلاً ونقلاً وقلبًا، يقبلها النص والعقل، ويتقبلها الناس على اختلاف مستويات مداركهم ومشاربهم. أما إذا كان "الفتح" أوسع وأعمق، والكشفُ أكثرَ لطفًا ودقةً من أن تدركه العقول، أو تحتمله النصوص ظاهريًا، فثمة قانون صوفي مؤداه أن ما يكشفه الصوفي بقلبه وروحه لا يُجبَر غيرُه على التصديق به؛ هذا القانون يقول:

" الكشف دليل لأهل الكشف لا لغيرهم".

لكن المحير في الأمر أن الرغبة الجامحة في الوصول إلى الحقيقة، وفي كشف الغموض، وحب الاستطلاع هي رغبات فطرية مركوزة في الجِبِلَّة الإنسانية، وربما كانت هذه الرغبة هي

الدافعَ لحيرة الفلاسفة وتعدد المناهج والمدارس الفلسفية، وربما السبب الآخر في قصور هذه الفلسفات والتيارات الفكرية كلها هو اعتمادها فقط على العقل؛ ذلك العقل الذي يبذل أقصى طاقاته، ويستنفذها في حل مشكلات الفلسفة، والإجابة عن تساؤلاتها الأزلية؛ لكنه في النهاية يعلن عجزه واستسلامه، ومن ثم يأتي فيلسوف جديد بمنهج جديد وفلسفة جديدة، لا تستطيع هي الأخرى أن تجد الإجابات المطلوبة؛ لكنها تستطيع فقط أن تنقد وتنقض الإجابات السابقة التي اقترحتها الفلسفات السابقة.

كل ذلك التيه الذي يعيشه الإنسان في فلسفته؛ كان سببه عدم إيمانه، فلا دين يمنحه الحقائق الكبرى، ولا إيمان يهدي قلبه وفكره، ولا تقوى تهدهد روحه، وتطفئ ظمأها للحقيقة، إنما الموجود فقط عقل، وعقل بلا هدى.

فالعقل وحده غير كاف على الإطلاق، وهو سلاح ذو حدين، قد يقتلك أو يقتل عدوك، هذا العقل يمكنه أن يقودك إلى الخير والبر والصلاح، فترتقي درجات الكمال الإنساني إلى مرتبة {**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**}، وقد يسوقك العقل إلى الغواية والبلايا والرزايا، فتهوى في دركات البهيمية إلى حضيض {**بَلْ هُمْ أَضَلّ**}.

فهل ينكر أحد عبقرية جنكيز خان أو ذكاء هولاكو، ورغم ذلك لم يحجزهم عقلُهم عن ارتكاب أشنع الجرائم التي ما زالت وصمة عار في جبين الإنسانية، ومع ذلك لم يندى لهم جبين خجلا مما فعلوه، ولا رف لهم جفن من تأنيب الضمير.

إذًا، فالعقل لابد له من هدى، وليس يهدي العقلَ سوى خالقه سبحانه، فإذا ما انضبط العقل بضوابط الشرع، والنص، والنقل، وتربى على منهاج الله قرآنًا وسنة، وتربية صوفية، كان في ذلك خلاصه من تيه الفلسفة وحيرتها.

ولو كانت العقول العظيمة لها القدرة وحدها على تدبير أمر البشرية لاستطاع الفلاسفة أن يوجدوا "المدينة الفاضلة" ولاستطاعوا أن يدلوا الناس على طريق السعادة، أو لأغنوا عن إرسال الأنبياء لهداية البشرية، ولما احتاج الناس إلى "هدى" من السماء ينزل به الوحي.

وقد لاحظ بعض الفلاسفة هذه الحقيقة، واعترفوا بعجز العقل، لذلك بدؤوا بالبحث عن وسائط أخرى يستخدمونها في بحثهم عن الحقيقة، ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) الذي قبِل «الحدسَ» وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة، وكلمة «الحدس» هذه كان أهل الكشف يستخدمونها في الماضي لنشاطاتهم القلبية، وكانت تسمى «السوانح القلبية».

ويقول برغسون أنه من الخطأ واللامنطقي رفض الحقائق الميتافيزيقية التي يتلقاها المتدينون حين يصلون إلى مرتبة معنوية محددة بعد تطهير القلب وعبر الرياضات الروحية (الذكر الصوفي وغيره)، لأن هذه الحقائق لا تخضع للتحليل التجريبي مثل الحقائق الفيزيائية، وأوضح أن الحقائق المجردة مثل تلك الموجودة

في التجارب الصوفية لا يمكن أن تكون موضوعًا في التجارب المخبرية، وهذا يظهر أن جزءاً صغيرًا من الفلسفة يلائم الفكر الديني؛ وبالتالي فهو يلائم التصوف.

أما البقية من الفلاسفة فما زال العقلُ محرابهم، وما زالوا يتخبطون في ذلك القفص الحديدي الضيق الذي حبسوا فكرهم فيه، ولم يفتحوا له آفاق الروح والقلب والمشاعر والدين، فصاروا في غيِّهم يترددون ويناقضون.

وعلى النقيض تمامًا نرى العقل الذي غذاه الوحي، وهداه أنبياء الله الذين -على أكثريتهم الفائقة- ينهلون من معين واحد، ويصدرون عن أمر واحد[٧٢]، ويدينون بدين أصله واحد، ويؤمنون برب واحد سبحانه.

ويقول الإمام الغزالي ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضًا غير وافٍ بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلًّا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات»[٧٣].

---

٧٢ في ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى، ١٣).

٧٣ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٢٨.

ويوضح نجيب فاضل قيساكوراك موقف الإمام الغزالي بين العقل والمعرفة في أحد مؤلفاته قائلًا: «إن المفكر الكبير المعروف بـ(حجة الإسلام)... كان مما قاله في المرحلة التي ترك فيها أمور الإدراك العلمية والفكرية كلها، وتوجه إلى المعرفة الحقيقية: وجدت أن كل شيء هو عبارة عن اللجوء إلى روحانية نبي الأنبياء، وسائر ما تبقى ما هو إلا كذب ودجل، ووهم وخيال!.. أما العقل فهو لا شيء... مجرد حدود!

وهذا الرأس العبقري العظيم الذي لم ير العالم مثله قد تراجع عن تساؤلاته كلها، والتجأ إلى روحانية نبي الأنبياء، ووصل إلى اللاحدود»[٧٤].

ذلك هو العقل العاجز المحدود، وهذا هو التصوف بعالمه الرحيب اللانهائي، فإذا لم تكن تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج بك إلى ذلك العالم المنشود.

٧٤ نجيب فاضل قيساكوراك، من جيش الأولياء، ص٢١٣.

خ. العِلم النافع:

ثمة فروق جوهرية بين مصطلحات ثلاثة قد تتقارب حروفها ومعانيها: العالِم، والعارف، والعرفان.

فالعالم هو كل صاحب علم ظاهري، أو رجل يحمل "العلوم الكتابية"، أما العارف فهو شخص ذو علم وحكمة وإطلاع على الأسرار الكامنة وراء هذا العلم بتجلياته الإلهية.

بينما العرفان هو تلك الحالة أو الدرجة التي يصل إليها العارف بعلمه وتقواه، بعقله وقلبه، حين تكون العلوم كالبذور التي تحمل الخير والبركة والنماء؛ وتوضع في التربة الصالحة، وتتفاعل مع البيئة الصالحة، فتنمو وتكبر وتتكاثر، وتنتج، ويعم خيرها، فكما أن هذه الحبوب لا تخرج أسرارها المودعة فيها إلا حينما تتفاعل مع الكون، كذلك العلم.

والعلم نافع بطبعه، مفيد لأهله وللناس شريطة أن يستخدم بالأسلوب الصحيح، والطريقة المثلى في استخدام العلم هي أن يتجذَّر هذا العلم في أعماق روحك وقلبك، كما تفعل البذور في التربة الطينية؛ حينها يحصل النفع بالعلم في الدنيا والآخرة،

ويستطيع الإنسان أن يوجه الطاقة الخيرية في "العلم النافع" لسعادة البشرية.

ومن المعاني الدقيقة لتفادي الخلل البشري في استخدام العلم وتوجيهه ما قاله العلامة "ماهر عز" عندما ذكر أن الإرشاد المعنوي هو الذي يمكن من خلاله تجنب الزلل في تحصيل العلم بالعقل وحده دون القلب؛ يقول:

«إني موقن بأن المعرفة الحقة لا يُتوصل إليها إلا من خلال أهلها تعليمًا، وإرشادًا، وتربيةً، وتوجيهًا، مع سعيك الدؤوب في التحصيل وجمع كل شاردة وواردة تستطيع الحصول عليها؛ لذا فإنني بمجرد أن تلقيت إشارة قلبية من تجليات الشيخ رمضان أوغلو للعروج إلى سماء المعرفة، فقد ربطت إرادتي به، وأسلمت قيادي له»[٧٥].

ودرجة "المعرفة" التي يصل إليها كبار المتصوفة، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا بالرياضات الروحانية والتربية المعنوية؛ هذه الدرجة هي التي تنتقل بمدارك الإنسان إلى آفاق أرحب مما يدركه العلم الظاهري؛ تنجو بروحه أيضًا من ذلك الغرور والكبر مهما بلغ علمه؛ لأنه حينها يدرك مدى عجزه، وهو غارق بفكره في هذا العالم اللانهائي من الدهشة بالحقائق والمعارف بالغة التعقيد،

---

٧٥ Yılların İzi (ذكريات السنين)، ص ٣٩٦.

حينها يدرك أن الحواس والمشاهدة الظاهرة لا يمكن وحدها أن تحصل على المعرفة؛ بل بإدراك الحكمة والأسرار وراء العلوم والمخلوقات، فالعلم الحقيقي هو أن ندرك حل لغز هذا النظام الكوني الكبير، وما وراءه من الأسرار الإلهية الكبرى.

وهناك حكاية ذات مغزى ومدلول جوهري؛ يرويها لنا مولانا جلال الدين الرومي، يوضح بها أهمية "العلم النافع"، والمعرفة الحقة المنجية يوم الدين، والموصلة للسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والتي من دونها يكون عمر الإنسان وعلمُه وسعيه هباءً منثورًا، تقول الحكاية:

"كان أحد علماء النحو يركب ذات يوم سفينة، وأثناء سفرها في عرض البحر كان العالِم المغرور بعلمه يجالس صاحب السفينة، ويسأله بين الحين والآخر أسئلة معجزة ما كان لدى صاحب السفينة من جواب سوى كلمة "لا أدري"؛ بينما العالم النحوي تزيده هذه الإجابة نشوة بعلمه، واستهزاءً بصاحب السفينة، وحينها قال النحوي للرجل: يا للأسف!! لقد أضعت نصف عمرك بلا طائل بسبب جهلك.

جرحت تلك الكلمات الغليظة مشاعر صاحب السفينة، لكنه إن فَقَد العلم فلم يفقد الأخلاق، وإن كُسِر قلبه بهذا التحقير فلم تُكسَر روحُه بالنزول إلى درك رد السفاهة؛ بل صمت، ولم يرد على كلمات وسلوكيات هذا المغتر بعلمه.

ثم حدثت عاصفة هيجت الأمواج، وتلاعبت بالسفينة، وأدخلتها في دوامة الغرق، وجعلت الجميع يوقنون بالهلاك، وهنا ذهب صاحب السفينة ليطمئن على العالم النحوي، فسأله: يا سيدي!! هل تعرف السباحة؟

وهنا تلعثم النحوي الخائف الجاهل بالسباحة، وقال: لا، لا أعرف. وكان الرد الحكيم من صاحب السفينة:

"يا أستاذنا!! إذا كان نصف عمري قد ضاع جهلاً لأني لم أتعلم النحو، فإن عمرك كله سيضيع الآن مع هذه السفينة في تلك الدوامة لأنك لم تتعلم السباحة، أما كنت تدري أيها النحوي أن علم السباحة هو أهم وأنفع من علم النحو في ذلك البحر؟!".

والنحو هنا رمز للعلم الظاهري العقلي الدنيوي، أما السباحة فهي رمز للعلم الباطني القلبي المنقذ؛ الذي يلبيك حينما تستدعيه، ويجيبك عندما تناديه، وينقذك عندما تحتاج إليه في الدنيا والآخرة، علم ينفع روحك وبدنك، ويوصلك إلى رضا الله تعالى عبر العمل الصالح والإيمان الكامل.

وهذه السفينة المقبلة على الغرق هي نفسها الجسد الفاني المقبل على الموت بعد الدخول في دوامة الحياة ومعترك الأجل، وحينما تأتي الساعة الحاسمة تتخلى عنك حظوظ الدنيا التي اتخذتها زينة وتفاخرًا، ولا تنجيك علومك التي تعلمتها لتماري بها السفهاء،

وتجاري بها العلماء، وتصرف بها وجوه الناس إليك، لا تنفعك هذه العلوم التي تعلمتها للناس لا لله تعالى؛ بل حتى لم تتعلمها لنفسك، فتجيب على أسئلتك الحائرة، وتقدم لك الإجابات الشافية، وترتقي بك من درجة العالم إلى سماء درجة العارف، ولم تُخرجها من خزائن عقلك لتغرسها في أرض قلبك، فتثبت وتورق وتتفيأ ظلالها في كنف الله تعالى ورضاه.

فما سبيل النجاة إذًا بهذه العلوم؟!

السبيل هو التوجه بهذه العلوم إلى الله تعالى، والتخلص من كل مراد سواه؛ ومن كل رجاء عداه، وجعل العلم وسيلة لنيل رضاه، فالمرء الذي يتفاخر بالعلم، والنفس التي تتباهى بالمعرفة، ستوضع في التراب بعد أن تغرق السفينة، ولن يبقى منك سوى "قلب سليم" يقبل على الله حاملاً علمًا نافعًا، يستطيع وحده أن يمخر عباب المحيط؛ ناجيًا من كل ريح عاتية أو موجة عالية، لا تثقله نفسه فتهوي به وبعلمه إلى القاع، ولا تغويه شهواته فتجره وتدور به في دوامة البحر، إنما هو علم يتجرد به لله وحده سبحانه، ولا يعطي منه شيء لنفسه ولا لشهوات نفسه، فهو يحارب هذه الشهوات من الغرور والكبر والرغبات حتى يقتلها، ليفوز بالحياة الأبدية الخالصة من الشهوات، المتخلصة من الرغبات، الصاعدة إلى أعلى الجنات، الناجية من كل الملمات.

وهذا هو معنى النصيحة الصوفية القائلة:

"موتوا قبل أن تموتوا".أي لتمت منكم النفوس والشهوات، قبل أن تموت منكم الأبدان وتنكسر الأرواح.

والسبيل إلى ذلك هو ما قاله أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا"[٧٦].

ليكون الإنسان دائم المراقبة لنفسه؛ شديد الحرص على كل تحركاتها وسكناتها، ممسكًا بكل قوة بلجامها، فلا تدفعه لشهوة، ولا تجره لرغبة، ولا توقعه في آفة.

ويروي لنا القاضي أبو بكر بن العربي الأندلسي هذا المشهد، فيقول: رأيت الإمام الغزالي في البرية، وعليه مرقعة، وبيده عكاز وركوة، فقلت له: «يا إمام، أليس التدريس في بغداد أفضل من هذا؟» فنظر إليَّ شزرًا، وقال: «لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة، وجنحت شمس العقول إلى مغرب الوصول:

تركت هوى ليلى وسعدي بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلًا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلًا دقيقًا فلما لم أجد لغزلي نساجًا كسرتُ مِغزلي[٧٧]

٧٦ الترمذي، القيامة، ٢٥.

٧٧ ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت ١٤٠٦، جـ٦، ٢٢؛ محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، ص٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص٦.

هذا العالم الفذ بعد طول علم ومجاهدة أدرك الغاية، وعرف الحقيقة، ورأى بعين البصيرة، فعرف قيمة هذه الدنيا الحقيرة، وعلم أن ما كان فيه من العلم ليس علمًا؛ بل العلم الحقيقي والأثر الأبقى والمنقذ الوحيد وطريق السعادة الأوحد إنما هو العلم الذي يزيدك بالله معرفة، ويملأ قلبك إيمانا به وشوقا إليه، فتؤدي العمل الصالح بروحك قبل جسدك.

والعلم الحق هو الذي يحملك على أن تدرك ما عليك من مسؤوليات يوجبها عليك هذا العلم: المسؤولية العقلية والوجدانية والقلبية، حتى لا يفلت زمام العلم من يديك، ويصبح قوة جامحة لا يُعلم لها توجه، ولا يُدرك لها قرار، وينقلب نفعه ضررًا بالغًا، وكأنه قوة نووية في يد مخرب؛ وبدلاً من أن تنتج طاقة تدير عجلة الإنتاج تصير خطراً يدمر كل أخضر ويابس.

ولا تتحقق الاستفادة والنفع من العلوم، ولا يتم الانتقال من مرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق إلا بتوجيه العلوم من مجرد علم إلى "علم نافع"، متصل بالله، نابع من القلب، مفعم بالأخلاق.

وها هي العلوم المجردة من الأخلاق تحول أصحابها من السماء إلى الأرض، ومن نور الإيمان إلى نار الجاهلية، فعلم القانون حين يُسلَب صاحبه الأخلاق يصير جلادًا قاسيًا لا قاضيًا عادلاً، وعلم الطب حين يُسلَب صاحبه الرحمة والرقة يصير قصَّابًا لا ملاك رحمة، وذلك راعٍ يسوس أمور الناس بسياسته المحنكة،

لكنه حين يسلب الرفق يشقُّ على قومه، وأصحاب العلم هؤلاء أشد ضررًا من الجهلاء مسلوبي العقول.

ولكم هو جميل كلام يونس إمْرَه حين قال:

تحصيل العلم له غاية

هي معرفة العبد خالقه في النهاية

إن قرأت ولم تعرف البارئ

فجهدك إذًا ضاع هباء

فالعلم القلبي هو العلم النافع الذي يرتقي بأصحابه وبالدنيا كلها في الدرجات المادية والمعنوية.

ودعنا نتساءل عن النفع المادي من العلم الظاهري المجرد عن المعنويات إذا كان يلفه الكبر والغرور، ويقود أصحابه إلى درك الشرور، فأي نفع يُرجى منه مهما كان ماديًا أو معنويًا، نفعه المعنوي انكسار للقلوب، كما فعل مع صاحب السفينة، ونفعه المادي دمار شامل كصاحب القنبلة النووية. لا نفع يُرجى منه مطلقًا.

لذا؛ فإن البيان النبوي الرشيد، والمنطق المصطفوي السديد، والعبقرية المحمدية الفذة كان دعاؤها بالعلم النافع؛ إذ يقول رسول الله ﷺ

"اللّهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلا" [78]

---

٧٨ ابن ماجه، إقامة الصلاة، ٣٢.

وفي هذا السياق نجد أن غاية العلم النافع الذي يكوِّن كُنه علم التصوف هي تزيين العبد بالزهد والتقوى والإحسان، ومن كان علمه على هذا النحو، صار علمه عندها معرفة، وصار صاحبه عارفاً.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن العلماء الذين يقتصرون على الظاهر فقط يعلمون دقائق وتفاصيل الهندسة، والفلك، والطب، والفلسفة، كل حسب مجاله، لكن علمهم هذا ما هو إلا علم بهذه الحياة الفانية التي تُزال بطرفة عين، وهو علم لا يُري الإنسانَ طريق المعراج الذي يتجاوز السماء السابعة».

«ولا يمكن للغافلين الذين تحكمهم أنفسهم أن يعلموا الطريق إلى الله تعالى، ولا المنازل في هذا الطريق! ولا يمكن إلا للعارفين من أهل القلوب أن يعرفوا علوم الطريق إلى الله سبحانه، ليس بعقولهم بل بقلوبهم!»

فإذا ما اختلط العلم بالقلب، ونضج فيه؛ أدرك حقيقة الوجود وسره الأعظم، وحكمته الإلهية، وكان في وصال مع الحق سبحانه. وتنعَّم صاحبه بالتجليات والفيوضات الربانية، وسرى نورُ العلم من أذنيه وعقله إلى قلبه وسلوكه وروحه، فتحول العلم من صورة إلى سيرة، ومن فضول إلى فضيلة، ومن أوراق إلى أخلاق، ومن سطور وزبور إلى نور.

يقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه، ١١٤)

وهذه الزيادة هي التي ترفع من منزلة العبد في التقوى والخشية، فالله ﷻ يقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر، ٢٨)

ويقول نبينا الكريم ﷺ:

"إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِالله أَنَا" (٧٩)

وعن يزيد بن سلمة الجعفي رضي الله عنه قال، قال يزيد بن سلمة:

يا رسول الله، إني قد سمعت منك حديثًا كثيرًا أخاف أن ينسيني أولَه آخرُه، فحدثني بكلمة تكون جماعًا، قال: **"اتقِ الله فيما تعلم"** (٨٠)

وقد لخص النبي بهذه الكلمات غاية العلم ووضح طريقه الأمثل.

ويخاطب الإمام الغزالي قدس اللهُ سرَّه أولئك المشغولين بالعلوم الدنيوية المحضة، والذين يقضون عمرهم في «القيل والقال» متناسين ربهم ﷻ، قائلًا:

«يا بني! عارٌ عليك، إن لم يوصلك الكلام، والمنطق، والبلاغة، والشعر، والصرف، والنحو، وما شابهها من العلوم إلى

٧٩ البخاري، الإيمان، ١٣؛ الأدب، ٧٢.

٨٠ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٣.

العرفان! ماذا جنيت في عمرك الذي وهبك إياه الله جَلَّ جَلَالُهُ لكي تعبده فيه سوى أنك ضيَّعته؟!»

إذًا، ما فائدة العلم الذي لا ينفع في إيصال العبد إلى الجنة، والنظر إلى جمال الله تعالى، لا بل يوصله إلى الخسران؟ وهل من الممكن أن نطلق اسم علم على العلوم التي تجعل من الإنسان شبيهًا بإبليس، وبلعم بن باعوراء، وقارون، وأولئك الذين "أضلهم الله على علم"، فكان العلمُ سببَ ضلالهم وهلاكهم، فلم يملأهم العلم نورًا؛ بل حشاهم غرورًا؛ حتى تطاول المخلوق الحقير على الخالق العزيز سبحانه، فأورثهم العلم جهلاً وحمقًا وهلاكًا، ولم يعطهم نورًا وهداية. ويقول علماء الإسلام في ذلك:

«العلم هو الإدراك، ودون الإدراك لا يتحقق العلم، ومنتهى الإدراك هو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وبهذا تكون معرفة الله جوهر العلوم كلها، وبدرجة الاقتراب من هذه المعرفة تزداد قيمة هذه العلوم».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي: «الإنسان البارع المتعلم إنسان جيد، لكن خذ العبرة مما حصل مع إبليس ولا تعطه قيمة كبيرة! لأن إبليس أيضًا كان لديه علم، فقد رأى خلق آدم من التراب، ورأى وجهه الخارجي، لكنه لم ير حقيقته».

«إن أكثر أهل الجنة هم أهل القلوب الصافية، والإيمان المحض، وكم أضل العقلُ أهلَ العلم، وكم ضلت أفهام أهل العقل، وكم زلت أقدام الفلاسفة، فانج بنفسك أيها الإنسان من

هذا التيه، وتخلص من هذه الأرزاء، واحظ بتنزلات رحمات ربك في كل حين». فالطريق إلى الحقيقة لا يكون بالعقل وحده، فالعقل سبيله تحليل ألغاز الكون، وكشف أسرار الخلق، وتتوقف مهمته وقدراته عند مجرد الكشف عن وجود هذه الأسرار، والوقوف على عتبة الاندهاش والتعجب، والاستسلام عند نقطة التسبيح بقدرة الخالق سبحانه أما تجاوز هذه العتبات، والولوج إلى باب الأسرار، وكشف الأستار، فإنه بالإيمان والعشق.

فالعقل الذي تربى على منهاج الوحي الأمين بالقرآن والسنة، يوصلك إلى منتصف الطريق في الوصول إلى السر، ثم يأتي دور القلب ليكمل لك الطريق في كشف السر، وإدراك الحكمة من وراء الخلق. هذا العقل مجرد باب يمكنك فقط استخدامه لينفتح لك على عالم الحقائق والأسرار. هذا العقل مجرد درجة ترتقي بها في الدين إلى الدرجات الظاهرية الأولى.

أما الدخول إلى عالم الأسرار، والارتقاء في درجات الكمال، والوصول إلى "العرفان" فيكون بالعشق.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في اجتياز هذه المراحل:

«اجعل العقل قربانًا أمام المصطفى ﷺ»

فعندما تنتهي طاقة العقل، لا تستطيع إكمال المسيرة وبلوغ الغاية إلا بطاقة القلب، بالمدد الإلهي عبر الفيوضات والوجد؛ لتصل إلى الله الحق.

وهذا هو طريق الأولياء؛ الذين عبروا بحر الوجود بالحب، واجتازوا إلى عالم الأسرار بالوجد، وتعالوا على دنيا الفناء والخراب بنشوة الإيمان، واحتضنتهم حالة الاستغراق والتفكر بنشوة العشق.

فأولياء الله هم الذين ورثوا مهمة الأنبياء واضطلعوا بأعباء مهمة الرسالة، وواصلوا طريق المرسلين في هداية البشرية، وتربية النفوس، وتزكية الأخلاق، وتلك هي الغاية الأساسية التي أرادوها، والتي وصلت بهم إلى ذروة عالم الروحانية.

وليست كل أحوال الأولياء كرامات، إنما هي علمٌ صار عرفانًا، وإيمانٌ ملأ القلبَ والروحَ فصار بصيرة ترى التجليات الإلهية في كل أرجاء الكون، عبر العشق الإلهي الذي تشربته خلايا قلوبهم.

ويرى أولياء الله هذا العالم في إطار تجليات القدرة الإلهية، وبالبصيرة التي كانت نتيجة العشق الإلهي، ويطَّلعون على أسرار وحقائق الإنسان والأشياء والكون.

فإذا انحرف العلم عن مساره، وضل عن طريقه، ولم يتخذ سبيله في ينبوعه القلبي؛ صار في القلب شوكة لا وردة، وفي العقل ضلالاً وليس هدى، ولم يبصر عجائب المخلوقات والآيات التي يذخر بها الكون.

إن طعم الحياة يصير أكثر لذة وأعظم متعة لمن يفهم لغة الرياح والجبال والأنهار، ويتعلم من فنون الزهور والأشجار والطيور وحتى الوحوش والكواسر، ويحس بالفن الإلهي المبثوث في كل أرجاء الدنيا، فمن لم يدرك ذلك كله، أو شيئا منه، فهو علامة على فراغ القلب وانعدام نضجه.

ويوجِّه سعدي شيرازي القلوبَ إلى الحكمة، ويدعو إلى العلم النافع بقوله: «حتى أوراق الأشجار الخضراء هي ديوان للمعرفة في نظر الشخص الواعي، أفلا تبدي كل ذرة في هذا الوجود الفن الإلهي وإبداعه؟»

إنَّ الكون معرِضٌ للتجليات التي تفيض من ينبوع الأسماء الإلهية، والإنسان هذا السر الغامض، ما هو إلا تجلٍ كاملٌ للأسماء الإلهية، فمن يرد الوصول إلى الكمال في الدنيا، عليه أن يكون صاحب قلب يحمل أحاسيس سامية، وقد كان الحسين بن منصور الحلَّاج حتى أثناء رجمه يبحث عن القلب الكامل.

وكلُّ ذرة في هذا الكون تنقل لنا سلامًا وخبرًا جديدًا من الأسماء الإلهية في كل لحظة من لحظات العمر، فإذا لم تكن الأمورُ كلُّها، من ابتسامات الطفل الرضيع إلى خفقات جناحي الفراشة، ومن نغمات العندليب إلى ألوان الربيع وأريجه، تجلياتٍ للأسماء الإلهية، فماذا ستكون إذًا؟ وأعظم مظهر من مظاهر العلم النافع هو قراءة المرء كتابَ الكون والمخلوقات بعينَي قلبه، وإدراكه أن

العالم ما هو إلا حِكم، وعِبر، وتجليات إلهية، إذ يقول المولى ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الدخان، ٣٨)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

وتهدينا الآيات إلى أن المخلوقات في الكون هي معجزات، وأن وراء الموجودات حِكَمٌ وأسرار، وأن الخلق كان لعبرة وعظة، وأن ذلك الإبداع كله موصل إلى المبدع سبحانه، وهذه المخلوقات بعظمتها دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وأنها كلها تجليات للعظمة الإلهية. هذه العظمة تلفت حتى الأنظار العمياء، وتحرك القلوب الجامدة، فالأزهار الرقيقة ذات الألوان المبهجة والأريج الزكي تبعث السرور والبهجة والبسمة في أشد الوجوه عبوسًا وأكثر القلوب غلظة.

وجسم الإنسان الذي هو جُمَّاع لكل معجزات الخلق والكون، وأنموذج متفرد للدلالة على عظمة الخالق، عندما يقف أمامه الطبيب العالم، وينظر إليه من هذه الزاوية، زاوية الإبداع الإلهي، سيرى فيه كنزًا ضخمًا من كنوز الأسرار الربانية، عندها يدرك بالعلم النافع والنضج القلبي مقدار القدرة الإلهية، فينظر إلى مريضه بعين الشفقة والرحمة؛ لا بعين الكيمياء والعمل الروتيني.

فما بالنا بقلب المؤمن وروحه، وما بالنا بصاحب العلم الباطني؛ كيف يكون إدراكه لهذه العظمة. أما إذا لم يصل الإنسان

إلى هذا الإدراك، ولم يبلغ ذاك الأفق، فقد سقط في هاوية من النقص والعجز لا يجبرها شيء من المناصب العلمية والدنيوية، فأي قيمة دنيوية يمكن قياسها بالنضح القلبي والكمال الأخلاقي.

ونفهم من كل ما سبق أن طريق العلم النافع يحتاج إلى التخلِّي والتحلِّي، التخلي عن خصال سلبية تصيب القلب والنفس مثل الرياء والتكبر والطمع والفخر وحب الرئاسة، وغير ذلك....

والتحلي بملء القلب بالصفات الإيمانية التي تحيي الروح بالخلق المحمدي العظيم كالتقوى والخشوع والرحمة والصبر والشكر والتواضع والقناعة والزهد والورع، والتوكل على الله.

ويبيِّن الإمام الرباني المحيط الذي يزدهر فيه العلم النافع بقوله: «أيها الإخوة المؤمنون، إن أول أمر ضروري لنا إنما هو تصحيح الاعتقاد بناءً على الكتاب والسنة، فأهل البدعة والضلالة يظنون أن عقائدهم وأحكامهم الباطلة توافق الكتاب والسنة، ولكن اعتقادهم في الواقع بعيد أشد البعد عن الحق والحقيقة».

وعليه؛ فإنه من الواجب معرفة أوامر الشرع ونواهيه، ومعرفة الأحكام الدينية ومراعاتها بدقة، والسير على خطى الحبيب المصطفى ﷺ سنة وسيرة، والتخلق بخلق القرآن، وتطبيق ذلك كله في الواقع وترجمته إلى أعمال صالحة تحمل موافقة الشرع ومشاعر القلب، فتصل إلى الكمال.

فلا تطبيق للأحكام الدينية، ولا طائل وراء تنفيذها؛ إذا لم يكن الاعتقاد سليمًا.

ولا وصول إلى كمال الأخلاق وسمو المشاعر؛ إذا لم تراعَ أحكام الشرع.

ولن تتحقق سلامة القلب وتزكية النفس وتطهير الروح دون عمل وجهاد.

فإذا تحقق تطهير القلب وتزكية النفس، وتحققت سلامة الاعتقاد وصلاح العلم والعمل؛ حينها يصل السلوك بالعبد إلى الكشف والوجد، فينال الفيوضات الإلهية، وحينها يصل العلم إلى درجة "العلم النافع"، ثم يصير معرفة بالله تعالى.

اللهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا، وقلبا خاشعا، وعملا متقبلا.

اللهم إنَّا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع.

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يعملون بعلمهم، واجعلنا يا رب من أولئك السعداء الذين وصلوا إلى العرفان، وارتقوا إلى الدرجات العليا في معرفتك.

التصوف يجعل العبودية في أجمل شكل بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانيات التي ستصبح وسيلة للعبودية

التصوف رشحة وقطرة قلبية: ((٨١))

«التصوف يجعل العبودية في أجمل شكل بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانيات التي ستصبح وسيلة للعبودية».

- **ألتون أولوق**: سيدي أعددتم كتاباً باسم «التصوف من الإيمان إلى الإحسان».

وحتى يومنا هذا ظهرت كتب كثيرة جداً تدور حول التصوف فلماذا أحسستم بالحاجة لتأليف كتاب جديد؟.

-**المؤلف**: في الحقيقة هذا صحيح لقد أُلفت كتب كثيرة جدّاً تناولت موضوع التصوف. ولكن المد والجزر الذي في داخل تيار الحياة المتحرك - أي انقياد المجتمع للمادة - يحيل

٨١ هذا الجزء من الكتاب عبارة عن مقابلة أجرتها مجلة التون اولوق مع المؤلف.

الهدوء والسكنية الإجتماعية فسادًا. وتظهر كل يوم أمام البشر مجموعة من الحاجات الجديدة، ومع تشابه جوهر المسائل تنشأ مع الوقت آراء ورغبات جديدة.

ومثلما توجد حاجة لتأليف كتب شرعية وتاريخية لتقييم هذه الآراء والرغبات ومواجهة تلك الإحتياجات، توجد حاجة أيضًا في كل عصر لكتابة المسائل الصوفية من جديد كضرورة للتربية الروحية تبعًا لمقتضيات العصر وحاجاته. أي أنه من اللازم للغاية التعبير عن حقيقة الصوفية وحقائقها بلغة تلائم العصر وتُصحّحُ المفاهيم والتجاوزات الخاطئة.

ومن المؤكد أن هذا ليس هو السبب فقط، بل لكي يتمكن الميدان الصوفي من تقديم الجماليات الواسعة التي يشملها التصوف إلى القلوب كلها -بحسب الزمان والمكان- لابد أن يكون حاله تشبه تقريبًا بحرًا من المؤلفات.

ولهذا فنحن سعينا لتقديم قطرة قلبية قاصرة عاجزة إلى هذا البحر لتحقيق نفس الغايات. ولأن التصوف حال أكثر منه مَقالاً فسوف نغبط أنفسنا لو استطعنا أن نكون جسرًا لتوجيه القلوب إلى ذلك الحضور العالي.

أي أننا لم نكتب كتابنا هذا بدعوى تجاوز ما كُتب حتى الآن، هذا ما يقتضيه حال الأدب مع السابقين. بل إن عملنا عبارة عن نقل التصوف من جديد إلى روزنامه الحياة اليومية بخطوطه

العامة بشكل يناسب المصلحة تبعًا لمقتضيات وظروف عصرنا مع الإستفادة من المؤلفات الصوفية التي أُلفت حتى يومنا هذا، والحياة النورانية لِأَحبّاء وأولياءِ الحق ﷻ.

وهذا الكتاب أساسًا هو جرة ماء رشحت من التراث الصوفي لأحبّاء الحق وقدمت لإنسان هذا العصر.

فأحباء الحق ينظرون إلى الشمس المشرقة وإلى اللوحات المتداخلة الألوان التي ترسمها حزم الضوء عند الغروب بصورة تدعو إلى الإنبهار والدهشة، ويحلقون بكل وسيلة إلى آفاق معرفة الله تعالى. وهؤلاء عندما ينظرون بعيون مليئة بالمحبة حتى إلى إحدى الحيات ينبهر بالتموجات والخطوط الجميلة على جلد ذلك الحيوان بدلاً من الفزع والرعب الذي يصيب الآخرين، ويفتنون بسرعته عند الحركة رغم أنه ليس لديه أقدام. أي أن هؤلاء الخواص ينظرون بنظر المحبة والحكمة إلى المخلوقات كلها .

مرة أخرى فإن هذا الكتاب قد تم تأليفه بغرض بيان عدم صحة المفهوم الذي يرى التصوف أسلوبًا ونظامًا منفصلاً عن الإسلام، وللتعبير بشكل واضح عن ضرورة أن يُعاش الدين داخل نورانية وحضور في كلِ أحواله الظاهرية والباطنية. ولنؤكد على هذه الغاية بالأساس أَسمينا الكتاب باسم «**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**».

والغاية من تأليف هذا الكتاب هو تتويج الإيمان والإسلام بتاج «**الإحسان**». أي إنبات شعور المراقبة الإلهية في القلب، لأن التصوف الحقيقي هو أن تعيش وقد أخذت نصيبًا من الأسرار والحكم الوجدانية التي في عمق الكتاب والسنة. وكل قول أو حال أو سلوك يخالف ما جاء به الكتاب والسنة باطل، وللتعبير عن هذه الحقيقة قيل: «**الشريعة قدم الفرجار الثابتة**». فقد قال مولانا جلال الدين -قدس سره-:«نحن مثل الفِرْجَار قدمنا الثابتة في الشريعة ونحن نطوف بقدمنا الأولى على اثنين وسبعين أمة».

«والشريعة تشبه شمعة تنشر الضوء وتنير الطريق مع الإعتناء بالشمعة والبحث عنها لن تضل الطريق. ولكن لن تستطيع أن تسلك الطريق دون الإعتناء فهل بدأت في سلوك الطريق في ضوء الشريعة. وهكذا التصوف هو ذلك الطريق».

ومن ناحية أخرى فإن الإحسان الذي يجعل المشاهدة الإلهية حالة شعورية ثابتة في القلب. ويجعل العبد كأنما يرى الله تعالى في كل لحظة ويجعله ينظم حياته على هذا المنوال هو في النهاية المعراج الروحي لعباد الله تعالى المقربين إليه. وهو حقيقة معنوية وروحية وإلهية خفية. وهدف المتصوفة الوصول إلى هذه الحقيقة. وهذا أيضًا يوضح الرابطة الروحية الداخلية الباطنية التي تأسست مع الله تعالى.والشخص الذي أسس

هذه الرابطة بشكل صحيح يتحول إلى ولي لله تعالى وهذا هو التخلق بالأخلاق الإلهية.

أما هذه الحال فهي العبودية لله تعالى في أجمل صورة والإستعداد الجدّي للعالم الأبدي. أي أن التصوف هو إمكانية أن تعيش العبودية في أجمل صورة. لأن الخالق ﷻ قد خلق الإنسان لعبادته فقط.

وعلى هذا فالتصوف يمكن أن يجعل العبودية في أجمل صورة بأحاسيس المراقبة والإحسان ضمن إطار الكتاب والسنة. والتصوف ليس شيئا آخر سوى إلغاء الموانع التي تعوق العبودية وتعطلها وتأكيد الإمكانية التي ستصبح وسيلة للعبودية.

وهو تحويل الأراضي اليابسة والأماكن الميتة التي ليس بها حياة أو روح إلى حديقة غناء خضراء منبتة زاهية الألوان. ويجعل كثيرًا من القلوب الخربة قصورًا معمورة.

باختصار فإن التصوف هو طريق منير يجعل العباد جديرين عند الخالق ﷻ بمقام «**نعم العبد**»، وهم ذاهبون من عالم الغربة ذلك إلى عالم الوصول الأبدي الخالد، وهذا أيضًا بلا شك يكون ممكناً بتحول الإيمان إلى قوام الإحسان.

-**ألتون أولوق**: إن ما ذكرتموه على كل حال يعكس في نفس الوقت إطار الكتاب ومحتواه. فمن نفس الزاوية ما هي

الأشياء التي تكلمتم عنها بشكل عام في الكتاب؟ وما هي الأشياء التي اكتسبت أهمية خاصة في الحديث عنها ؟

- **المؤلف**: بعد أن عرضنا في كتابنا محتوى التصوف بشكل عام، سعينا لإيضاح المسائل -التي تشكل موضوعه الأساسي- مثل معرفة الله ومحبة الله تعالى، وتزكية النفس، وتصفية القلب، والأسلوب والطريقة الصوفية.

واجتهدنا لتقديم نماذج من سِيَر عظماء الإسلام وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، ومن تبعه بإحسان. وعرضنا مرارًا وتكرارًا المعلومات التي تجيب على مجموعة من الآراء والشبهات المختلفة المتعلقة بأعماق التصوف ودقائقه من ناحية الفكر فقط دون أن نستهدف الأشخاص.

فضلاً عن ذلك فقد أشرنا في الكتاب إلى عدم وجود أية علاقة لهذا الطريق المبارك بتلك الأفعال والتطبيقات غير اللائقة التي يقوم بها أشخاص بعيدون عن التربية المعنوية التي يقدمها التصوف، أو بسبب جهلهم وغفلتهم فقط مع توافر النية الحسنة. لأن التصوف يهدف إلى إنضاج الإنسان عن طريق تزكية النفس تلك النفس التي تحدث عنها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بخاصة، والتماس السعادة الأبدية بهذه الطريقة. وهذا الأمر هو حقيقة يشير إليها الحق ﷻ ويؤكد عليها المرة تلو الأخرى. يقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ١-١٠)

وقد أقسم الله بما أقسم به ليبين شرف الموجودات التي يقسم بها وقيمتها، وليظهر أهمية وعظمة وعلو المراد الإلهي والغاية الإلهية التي وضحها بعد ذلك القسم. وهكذا الوضع في الأَيْمان التي وردت في هذه الآيات، مع ملاحظة أن الله تعالى قد أقسم سبع مرات كاملة المرة تلو الأخرى في هذه الآيات الكريمة فقط، واستعمل كلمة **قد** مما يزيد المعنى قوة وتأكيدًا. لذا قال الحق تعالى بعد تلك التأكيدات: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾**.

ومما يوجب الملاحظة ويلفت الإنتباه أنه لم يرد في القرآن أبدًا القسم سبع مرات متتاليات بخصوص أمر آخر سوى تزكية النفس. وهذه الحقيقة تكفي لبيان أهمية وضرورة تزكية النفس -إلى هذا الحد- من أجل نجاة الإنسان وخلاصه.

وهكذا فإن هذا الكتاب الذي نشرناه تحت اسم «**التصوف من الإيمان إلى الإحسان**» هو عبارة عن إيضاح أحبّاء الحق وأوليائِه لهذه الحقيقة - أي تزكية النفس - بأقوالهم وأحوالهم وجمال سلوكهم.

- **ألتون أولوق**: كل ذلك كان بلا شك جواباً لسؤال عن «كيفية التصوف». وتبعا لهذا كيف يجب علينا تعريف التصوف بشكل جامع لمفرداته مانع للخلاف حوله؟ فلو أمكن الإجابة من شخصكم الكريم عن طريق ذكر تعريف أو تعريفات للتصوف وأهم التقييمات بشأنه؟.

- **المؤلف**: إن التصوف هو علم يُتذوق ويُدرك بالمعايشة، لذا كل شخص بشكل عام يتناول الأمور والنواحي التي تذوقها وأدركها فيه. وكنتيجة لهذا كان من الطبيعي أن تظهر تعريفات كثيرة جدّاً للتصوف.

ويمكننا القول إن أعلام هذا الطريق قد سلكوا طريقًا لتوضيح القَسم الذي انعكس عليهم فقط كبلورة تعكس الأضواء المختلفة من كل مقطع تقريبًا.

وهذه بعض تعريفات التصوف اللامحدودة -التي صاغها أحبّاء الحق بحسب التجليات الروحانية التي نالوها- ومنها:

-التصوف هو الأخلاق الجميلة والأدب.

-التصوف هو تزكية النفس وتصفية القلب.

-التصوف هو معركة معنوية لا هوادة فيها.

-التصوف هو الأخلاص.

-التصوف هو الإستقامة.

-التصوف هو الرضى والتسليم.

-التصوف أن تكون حبيباً ولا تكون حملاً ثقيلاً أي أن تحمل عن الأشخاص أثقالهم وفى المقابل لا تحمل عليهم أي شيء.

وباعتبار الجوانب المشتركة لهذه التعريفات المختلفة يمكننا أن نقول: إن التصوف هو تصحيح عالم المؤمنين الداخلي، وجعلهم يكتملون معنويّاً، وتوصيل العبد إلى الأخلاق الحميدة، وتقريبهم للخالق ﷻ، وبهذه الصورة هو علم يوصل إلى معرفة الله ﷻ.

ومنظومة التصوف المشهورة للشيخ إبراهيم أفندي شيخُ تكيةٌ «أُوغْلانْلَرِ» الموجودة في حي «آق سراي» تشرح لنا التصوف وتعرِّفه، ومن هذه التعريفات:

«التصوف أن تنخلع عن وجودك المادي في البداية
وأن تجعله سلطانًا على عرش القلب في النهاية.
التصوف أن تحمل بكليتك مسؤولية العروة الوثقى
وأن تكون مظهرا لآيات الغفران.
التصوف هو التصرف بالأسم الأعظم مع الكون كله
وهو أن تكون قرآنًا حيًّا يمشي على الأرض.

والتصوف في ضوء هذه التعريفات هو تطهير القلب من الأدران المادية والمعنوية، واكتساب الأخلاق والأوصاف الجميلة.

وهو السعي لأن تعيش الدين بالأخلاق والنورانية بكيفية تناسب جوهره. والتصوف بهذا الإعتبار هو الوصول إلى نضج وكمال في الرؤية يحيط بالأسرار والحكم والخفايا العالية -التي في الأحداث المادية والمعنوية- والتي لا يكفي العقل لحلها بمفرده.

وهو السعي لتحييد مانع النفس- وهو عائق وحاجز مؤكد- الذي يمنع القلب من الإنبهار والإفتتان بالحظوظ الروحانية التي لا تنتهي. أي أن التصوف هو تجاوز ميول ورغبات الجسد الشهوانية التي تحبس الروح. وبعد ذلك فهو مجموعة المعارف والأحوال المعنوية، والمشاعر والسوانح والتجليات القلبية التي تدعم مشاهدة الحقائق الخفية التي في جوهر الحوادث كلها، وصفحات العبرة والحكمة التي تجري خلف تلك الحقائق بأسلوب عرفاني.

والتصوف بهذا الإعتبار هو الإمتزاج بمحبة واسعة، والتكامل ظاهرًّيا وباطنيًّا مع حياة رسول الله ﷺ المباركة، لأن تلك هي التجليات الظاهرية والباطنية الداخلية والخارجية لرسول الله ﷺ أي حاله ﷺ .

ومن أجل ذلك يمكن الحصول على جزء من روحانية رسول الله ﷺ وذلك بأن تكون روحيًّا معه بشكل مجازي. وبعبارة أخرى فالتصوف هو الإيمان المتحد مع العشق والعبادة التي تؤدي بالوجد وجمال السلوك.

والخلاصة إن التصوف هو قطرات ندى نورانية انعكست على القلوب الممتلئة بالمحبة والتي بدأت بنفخ الروح في آدم عليه السلام ووصلت إلى الكمال في نبي آخر الزمان محمد ﷺ .

-**ألتون أولوق**: هل يمكننا أن نعتقد أن العلاقة الأكيدة التي كانت في ساحة التصوف طوال التاريخ قد تحققت بسبب الحياة الإيمانية والعرفانية الخالصة التي عيشت حول تلك التعريفات التي تفضلتم بذكرها؟. وحقيقة فإن التصوف اليوم مثلما كان بالأمس- وعلى الرغم من النفور منه أحيانًا بسبب الإتهامات المتعمدة - فإنه كلما مر يوم يشعر الناس بالحاجة أكثر إلى وجوده في ساحة العمل الإسلامي. وقد رصد كثير من المسلمين وغير المسلمين علاقة متزايدة مع هذا الميزان الذي يمكن أن تسميته بـِ «**البعد المعنوي للإسلامي**». فما هي أسباب هذه العلاقة؟

-**المؤلف**: إن التصوف يوجه الإنسان إلى الروح. ويفتح للروح طريق الطمأنينة المعنوية المناسبة للإستعداد الفردي. ومن أجل هذا فإن كل ما يتعلق بنفس الإنسان وروحه يكون موضوع اهتمام. أي أن المسافات كلها التي يقطعها العبد في رحلته المعنوية والعوالم كلها التي هي حال ارتباط به وآلاف الأحوال والنهايات التي عاشها تكون متعلقة ومرتبطة بأمور لا حصر لها، مثل القدرة على إدراك وجود الله تعالى الذي هو رب العالمين ومعرفته قلبيًّا، والعبودية له عزّ وجلّ.

ومن أجل أشياء كهذه، فإن التصوف -الذي يُخاطب كل فرد في المجتمع- يمنع الضعف والتكاسل في أوقات الراحة الإقتصادية والإجتماعية، ويزيد من الحيوية المعنوية ويجعلها تستمر ولا تتوقف.

ومن ناحية أخرى يفتح نافذة علوية على القلوب المختنقة بين نزاعات الأوقات الصعبة المملوءة بالظلم والإنشغال والقهر، ويجعلها تتنسم أنفاس التجلي النورانية. ويكون مرهمًا للقلوب الجريحة، وماء الحياة للعقول المتعبة والأرواح الظمآنة.

والتصوف من ناحية أخرى هو حماية من الغرور والكبر والعجب، وتلقين التواضع والإنكسار للذين بلغوا الذروة في الأخلاق الجميلة والعبادة. وهو أيضًا يمد أطواق نجاة الروح مثل العفو والغفران والرحمة الواسعة إلى العباد الذين اختنقوا في مستنقعات الذنب. فمثلاً من الحقائق التاريخية في هذا الشأن اكتساب تيارات التصوف قوة وظهور عدد كبير جدّاً من المتصوفة الكبار في تلك الفترة التي أعقبت هجمات المغول، وكان في ذلك تسكين وعزاء للاضطرابات والقلاقل التي سببت الفتنة والفساد الذي هز الأناضول كلها لفترة. لأن التصوف يمس القلب بصدمة كهربائية، ويُحْيِيه بالتسليم في المشاكل التي لا يكفي فيها العقل. وتتجلى المشاكل وتستبين بالتجليات التي في القلب مثل الكشف والإلهام الموافقة للكتاب والسنة.

ولعل تلك الكلمات لمحمد حميد الله أحد علماء الإسلام البارزين في هذا القرن الذي نعيش فيه والذي قضى حَيَاتَه كُلَّها في نشر الإسلام وخاصة بمؤلفاتِه باللغات الغربية وهي كلمات ذات مغزى ومعبرة للغاية فيقول: «لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيت عليه، وكانت الدراسات والبحوث الشرعية بالنسبة لي ترفض كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته بشكل مقنع إيمانيًا. ومن المؤكد أنني كنت أؤدي فروض الإسلام مثل الصلاة والصيام ليس لأسباب صوفية، بل لأسباب شرعية.

وكنت أقول لنفسي: إن ربي وحبيبي هو الله تعالى. وقد أمرني أن أفعل هذه الأشياء. وفى تلك الحال يجب عليّ أن أقوم بتلك الواجبات. فضلاً عن هذا فإن الحق والواجب يرتبط كل منهما بالآخر. والله تعالى قد أمرني «لتنتفع وتستفد من هذه الأشياء» وفي تلك الحال فإن واجبي أن أشكره.

ومنذ فترة كنت قد بدأت أعيش في مجتمع غربي في محيط مثل باريس، وكنت أشعر بدهشة وحيرة، ذلك أن ما دفع مسيحيي هذه البلاد إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون أمثال ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي. وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طلب مني إيضاح في أحد الموضوعات الإسلامية فإن الجواب الذي أعطيته والمستند على الأدلة العقلية لم يكن مقنعًا أو مرضيًا بالنسبة

للسائل، ولكن التصوف لم يتأخر عن إعطاء ثمرة الإيضاح. وبالتدريج فقدت قوة تأثيري في هذا الموضوع. والآن أنا أؤمن وأعتقد أن الذي يخدم الإسلام اليوم في أوربا وأفريقيا ليس هو السيف أو العقل، بل هو القلب -أي التصوف- كما كان الحال في زمن **قزان خان** عقب الدمار والخراب الذي سببه **هولاكو**.

وبعد هذه المشاهدة بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، وهذا فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وطريق متصوفة الإسلام الكبار لم ينشغل بالكلام فقط، أو بأشياء لا معنى لها، بل كان يسير في أقصر طريق بين الإنسان والله تعالى وكان يبحث عن تنمية الشخصية وتطورها.

والإنسان يبحث عن أسباب الواجبات التي كُلف بها. لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي يطمئن إليها الإنسان»

وهذه الكلمات توضح أن التصوف أصبح له أهمية كبيرة جدّاً في عصرنا الذي زادت فيه الأزمة الإجتماعية والإقتصادية رغم وصول الصناعة الثقيلة والنهضة التقنية إلى ذرى متقدمة وتحول الإنسان فيه إلى ما يشبه ترساً في آلة.

إن من يرى أن التصوف لا فائدة له ولا ضرورة له، كمن يرى أنه لا ضرورة للأخلاق والتقوى والعرفان وتزكية النفس وتصفية القلب ووصول العبودية إلى مقام الإحسان إلى الله تعالى.

هل التصوف ضروري؟: [٨٢]

-**ألتون أولوق:** يُفهم مما ذكرتموه بوضوح أن أسلوب التصوف له أهمية في تبليغ الإسلام. وفى تلك الحال فلو سألنا ما هو سر ثمرة أسلوب التصوف في إعطاء نتائج إيجابية كثيرة في تبليغ الإسلام، وإكمال وهداية الناس بالتوازي مع تبليغ الإسلام؟

-**المؤلف:** إن الجانب المهم للتصوف في يومنا الحاضر هو أنه أسلوب ومنهج يمكن اتباعه وتطبيقه في إصلاح البشر. فالأحكام الظاهرة للشرع الشريف غايتها حفظ الناس ووضعهم على صراط الله المستقيم سواء بالعقاب أو الثواب في الدنيا والآخرة.

أما التصوف الذي يمكن أن نسميه الأحكام الباطنية فهو يستعمل المحبة والشفقة والحب -إضافة إلى الثواب والعقاب- لتحقيق تلك الغاية. والبشر في عصرنا يعيشون في أزمة روحية

٨٢ هذا الجزء من الكتاب عبارة عن مقابلة أجرتها مجلة التون اولوق مع المؤلف.

بسبب ابتعادهم عن الدين، وارتكابهم المعاصي طاعة لشهواتِهم في أغلب الأحيان، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن إمكانية إصلاح هؤلاء ونجاتهم يمكن أن تتحقق أكثر بالعفو والتسامح والشفقة.

ومن هذه الناحية فإن عصرنا هو عصر تحمل فيه الحقائق الصوفية أهمية كبيرة، كما تحمل القواعد التي تتناول أسلوبه وأصوله القدر ذاته من الأهمية.

ومثلما يوجد في بلادنا من ينظر بالعفو والتسامح والشفقة، فإنه يمكن أن نشاهد في عالم الغرب توفيقًا ونجاحًا أكثر في أية فتوحات معنوية. وبدلاً من تقديم الإسلام -الذي هو نفحة تجلي إلهي- بنية العقاب والغضب إلى الأرواح المتأزمة تحت سلطان العقل والنفس في الغرب، فإن المنهج الأكثر نورانية في كل وقت أن تعرض لهم السلوكيات الممتلئة بالشفقة والرحمة.

لأن الإنسان ينال شرف كونه إنسانًا على قدر قربه أو بعده من الغاية الحقيقة التي خلق من أجلها. وإن الإنجرار من العظمة التي في جوهرالإنسان وفطرته إلى مستنقع الذنب هو تمامًا مثل سقوط الحجر الأسود الذي في الكعبة المشرفة ليختلط بتراب الأرض وغبارها. ولا يمكن أن نتصور أن يبقى وجدان أي مؤمن هادئًا أمام سقوط ذلك الحجر ولا يثور لها وينفجر غضبًا. وسقوط الحجر الأسود لن يصرف المؤمنون نظرهم عن احترامه، ولا يقلل أدنى درجة من قيمته في نظر المؤمنين.

بل على العكس فإن المؤمنين يفصلونه عن تراب الأرض، وينظفونه بدموع عيونهم ويتسابقون مع بعضهم من أجل وضعه في مكانه العالي القديم بكل الإحترام والتبجيل. وهذا الإحترام والتبجيل لذلك الحجر الذي ينبع من أنه قد هبط من الجنة، فما بالكم بالإنسان الذي حمل أسرار:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر، ٢٩)

والذي هو بؤبؤ عين المخلوقات وأعزها. وعلى هذا النحو فإن قدر الإنسان وقيمته باقية في جوهره وأصله حتى ولو انحط إلى أسفل الدرجات بارتكاب المعاصي والآثام.

إن روح الإنسان كما قال مولانا جلال الدين -قدس سره- تشبه ماءً براقًا صافيًا، لكن عندما تتلوث بالأعمال السيئة والذنوب لا يمكن أن ترى أي شيء.

وفي هذه الحال لابد أن نصفي ذلك الماء لكي نستطيع أن نرى اللآلئ المعنوية وأنوار الحقيقة. وعلى هذا فإن غاية التصوف هي تهذيب أحاسيس الأنانية والشهوة وإيصال الأفراد والمجتمعات بالتبعية إلى الهدوء والسكينة والأمان.

وعلى هذا النحو فإن أي إنسان مهما كان حجم ما ارتكبه من الشرك والكفر والذنب فإنه لا يمكن أن يحرم من أن يكون مدعوًا للهداية مخاطبًا بها في كل وقت.

وهذا مثال على ذلك من عصر السعادة، ذلك أن رسول الله ﷺ قد أرسل إلى وحشيّ قاتل حمزة رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه وحشيّ يقول: يا محمد! كيف تدعوني إلى الإسلام وقد نزلت في القرآن آية تقول:

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ (الفرقان: ٦٨، ٦٩)،

وإني قد فعلت هذه الأشياء الثلاثة فهل لي من توبة؟

فنزلت هذه الآية:

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان، ٧٠)

فكتب بذلك إلى وحشي، فكتب إليه: إن في الآية شرطاً وهو العمل الصالح ولا أدري هل أقدر على العمل الصالح أم لا، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النساء، ٤٨)

فكتب إلى وحشيّ، فكتب إليه: إن في الآية شرطاً أيضاً، فلا أدري أيشاء أن يغفر لي أم لا ؟

فنزل قوله تعالى

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، ٥٣)

فكتب إلى وحشيّ، فلم يجد فيها شرطًا ففرح وقال :(يا ربي ما أعظم رحمتك) وقدم المدينة وتاب توبة نصوحًا وأسلم، فقال الناس: يا رسول الله! إنا أصبنا ما أصاب وحشيّ قال: **"هي للمسلمين عامة"**(٨٣)

ولعل أهم خاصية للأسلوب الصوفي -الذي استلهم حقائق هذه الحادثة وأمثالها- هو طبيعة النظرة إلى الإنسان. فالإنسان تبعًا لهذا قد نال تجليات الصفات الإلهية وأصبح منتبهاً للخطاب الإلهي. ومن هذه الناحية حمل سراً من ربه كبؤرة العالم وبؤبؤ الكائنات. وعلى ذلك وكما قلنا قبل قليل، فإن الإنسان مهما انحط إلى أسفل الدرجات بارتكاب المعاصي والآثام تبقى القيمة في جوهره وأصله، ولكن عندما نقول ذلك فمن المؤكد أننا لا نعني أن التصوف بلا ضوابط.

ولكن ما يقوم به التصوف باختصار هو: «ألا يقل تسامحنا مع المذنب بسبب ما ارتكبه من ذنب، وألا تنتقل عداوتنا وبغضنا للذنب إلى من ارتكب الذنب».

٨٣ الهيثمي، جـ. ١٠، ٢١٤-٢١٥.

والتصوف بهذا الجانب يشكل أكثر الوسائط فائدة وإثمارًا في تبليغ الإسلام في وقتنا الحاضر؛ لأن البشر يشتاقون دائمًا إلى حضن أحبّاء الحق الحنون الدافئ أمثال عبد القادر الجيلاني، عزيز محمود هدائي، يونس أمره، بهاء الدين نقشبند ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالِهم.

-**ألتون أولوق**: لقد عرّفتم التصوف بما ذكرتموه بأنه الكيفية التي توصل الإنسان من الهُوية الخشنة الفجة إلى الهوية الكاملة. وبناء على هذه الحقيقة فما هي مكانة التصوف في حياة المسلم؟، بتعبير آخر هل التصوف ضروري؟.

-**المؤلف**: لقد سألتم سؤالاً مهمّاً للغاية، ذلك أن التصوف هو نعمة نورانية وتجل إسلامي- ببنيته ومحتواه الباطني الواسع- لا يمكن التخلي عنه من يد أهل الإيمان. ومن هذه الناحية فالتصوف يحمل أهمية كبيرة للغاية سواء لتوصيل المسلمين إلى الكمال، أو إلى أن يكون وسيلة لهداية غير المسلمين وأن يعكس لهم الإسلام بشكل صحيح.

لأن المعلومات المكتوبة في الكتب كلها تشبه في الحقيقة بذرة. فانظر كيف أن البذور عندما تبقى في المخزن فقط دون أن تبذر في الأرض لا تكون شيئا آخر سوى أن تكون بذورًا رغم مرور السنوات. وكذلك الحال عندما تبقى المعارف مكتوبة على الأسطر فقط ، أو موضوعه على الأرفف فلن تثمر شيئًا.

وفى مقابل ذلك فإن البذور التي تدفن في الأرض تنمو وتكبر حسب أوصافها وخصائصها. وقد تتحول إحداها إلى شجرة دلب ضخمة للغاية. ويشبه هذا تمامًا بذور العلم التي تبذر في أرض القلب فيصير كل قلب منها حديقة معنوية. فتثمر في ذلك الوقت الأسرار والحكم التي هي الثمار الحقيقية للعلم والعرفان.

ومن هذه الزاوية فإن جانب الفتوى في الدين يمثل الأعمدة الأساسية لبناء ما، أما جانب التقوى فهو عناصر الرقة والجمال التي تزين تلك الأعمدة وتكملها. والتصوف يجمع هذين الجمالين، ومن ناحية أخرى يضيف الأخلاق والعمل الصالح والجمال إلى هذا التكامل فيوضح ويفسر الإنسان والقرآن والكائنات، ويدعم إدراك المسؤوليات وأدائها بحكمة واسعة. وعلى هذا النحو فالتصوف هو بمثابة نافذة معنوية مفتوحة للعباد في باب محبة الله تعالى ومعرفته، وهى مفتوحة من قلوبهم نحو المعراج.

وعلى ذلك فالتصوف هو حاجة قلبية وروحية لا يمكن تجاهلها. وعندما يكون الأمر هكذا، فإن ضرورة وجوده في حياة كل مسلم قل أو كثر هو حقيقة لا يمكن الجدال فيها. وبشكل أدق فأينما وجد الإنسان في أي مكان يكن التصوف هو موضع المناقشة والحديث.

وإذا لم نلتفت إلى هذه الحقيقة وسألنا هل التصوف ضروري؟ فكأننا نسأل سؤالاً من قبيل هل التفسير والحديث وعلم الكلام والفقه والعلوم الأخرى التي هي أساس الإسلام ضرورية؟.

وإن من يرى أن التصوف لا فائدة له ولا ضرورة له كمن يرى أنه لا ضرورة للأخلاق والتقوى والعرفان وتزكية النفس وتصفية القلب ووصول العبودية إلى مقام الإحسان إلى الله تعالى، لأن هذه الحقائق كلها تُستهدف وتُقصد بالتصوف.

وعلى ذلك فإن الشخص الذي يعيش هذه الحقائق فهو بالنسبة لنا يعيش التصوف حتى لو لم يقبل اسم التصوف، لأن التقوى والزهد والإحسان والتصوف هي مصطلحات قريبة من بعضها البعض من ناحية الحقيقة والمحتوى وتدل على نفس المعنى والغاية. وفي مركز هذه المصطلحات كلها وفي وسطها يأتي رسول الله ﷺ -النموذج الفريد الذي لا نظير له- كـ «أعظم مرشد كامل» للبشرية كلها، والصحابة الكرام الذين تربوا في حضنه التربوي العظيم، وكان كل واحد منهم شخصية علوية ونجمًا في سماء المعنى والوجدان والقلب.

ومن ناحية أخرى فإن وصول القلب إلى الطمأنينة وإدراك الهدوء والسكون والسعادة يرتبط بالمستوى المعنوي الذي وصل إليه الإنسان.

ومن أجل ذلك يجب أن يتلقى العبد تربية معنوية، لأن امتلاء القلب بالعلم والحكمة وإطلاع المرء على حقائق الدين العالية، وتكامل العبد معنويّاً يكون ممكنًا فقط في نهاية مجموعة من العمليات.

فحتى الأنبياء الذين بُعثوا نموذجًا وهداية للبشرية كانوا يمرون بفترة تحضير واستعداد قبل تلقي الوحي. لأنه من الضروري تطهير القلب وإكسابه حساسية ورقة والوصول به إلى قوام واضح محدد.

وذلك من أجل أن يتحول ذلك القلب إلى متلق وجاذب للطف الإلهي والتجليات المعنوية. فرسول الله ﷺ كان يصعد إلى غار حراء ويعتكف قبل تكليفه بالرسالة والنبوة، وموسى عليه السلام ذهب إلى طور سيناء في رياضة روحية قبل أن يكلمه الله تعالى، ويوسف عليه السلام ظل في السجن اثني عشر عامًا قبل أن يصير عزيز مصر، وفي ذلك السجن تجاوز مراحل المشقة والرياضة الروحية والمجاهدة والمعاناة.

وهكذا انسلخت تلك القلوب المباركة تمامًا عن العلائق كلها وعن كل سند سوى الله عز وجل.

وكان رسول الله ﷺ مظهرًا لسر «**ألم نشرح**» قبل أن يصعد إلى المعراج، وشُق صدره الشريف ليغتسل قلبه الطاهر بماء الود والمحبة، وامتلأ بروحانية العلم والحكمة، لأن رسول الله

ﷺ في المعراج شاهد حوادث عجيبة وغريبة، ولوحات لطيفة وأسرار إلهية لا يستطيع أن يراها في قوامه البشرى.

وإذا كان الأنبياء -وهم عباد الله المخلصين- قد تعرضوا لتصفية القلب فما أكثر حاجة البشر الآخرين إلى تطهير القلب، لأن القلب الغليظ لا يستطيع أن يقترب من اللطيف ﷻ، فالذي فقد حاسة الشم لا يستطيع أن يكون له نصيب من رائحة زهور القرنفل، وإذا كان الزجاج مغبشًا بالبخار فلن تكون الرؤية واضحة من خلاله. ومن ناحية أخرى فإن اختلاط الحلال ببذرة من حرام أو شبهة يفقده قبوله ونقاءه، واختلاط جرة ماء من نبع صاف بقطرة من نجاسة يفقدها صفاءها وطهارتها.

ولهذا السبب يجب تطهير القلب من غلظته وزيادة حساسيته وقابليته المعنوية ليتحول إلى متلق للأسرار والحكم الإلهية، كما يجب أن يتزمل القلب ويلتحف باللطافة والرقة والصفاء، لأن الحق ﷻ يقول في كتابه العزيز:

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء، ٨٨ -٨٩)

وتحول القلب إلى قلب سليم مرتبط فقط باكتساب وتحصيل التربية المعنوية وصفاءها، لأن القلب قبل التربية المعنوية يكون مثل الحديد البارد. ولكي نستطيع تشكيله كما

نحب ونرغب يجب أن يتم تسخينه أولا، ويتم تطهيره من الصدأ والأوساخ، وبعد أن يخرج عن قساوته وشدته يتم طرقه وتليينه، وبعد هذه المراحل فقط يمكن أن يأخذ الشكل الذي نريده. وهذا بالضبط ما يحدث مع القلب، فبدون تطبيق هذه العمليات كلها لا يمكن أن يتحقق الكمال القلبي.

أما بعد تحقيق هذا الكمال القلبي فإن عالم الحقائق -الذي لا يمكن أن يرى بالعين ولا يمكن إدراكه بالعقل- سوف يُحس قلبيّاً ويُدرك ذوقيًّا، ومن أجل ذلك يجب إكمال وإنضاج الطاقة والدراية القلبية. وفي صدد إيضاح أهمية هذا الإنضاج والإكمال فقد وصف مولانا جلال-قدس سره- الدين حاله عندما كان مدرسًا في المدرسة السلجوقية في ذروة علوم الظاهر فقال: «كنت فجّا غليظًا فلما تحولت الكائنات -المملوءة بتجليات معرفة الله تعالى- إلى كتاب، وصارت الأسرار المكنوزة فيه عيانًا ظاهرًا وصفتُ حالي فقلت: لقد نضجت . ولما فنيت وتلاشيت في محبة ذاته وصفت حالي عندها فقلت: لقد احترقت».

وهذا يوضح أيضًا أن العبد يحتاج إلى تربية معنوية كاملة لكي يصل القلب إلى الكمال. ذلك أن قبول العبد لدى ربه تعالى يرتبط أكثر بالكشف القلبي. وقد قدم الصحابة الكرام أمثلة مجسدة لا حصر لها على هذه الحقيقة، فكثير منهم كانوا

يدفنون بناتهم أحياء -كأن قلوبهم قدت من صخر- ولكن في ظل تربية رسول الله ﷺ المعنوية صاروا معالم للرحمة والشفقة، ندية قلوبهم، دامعة عيونهم، وبذلوا أرواحهم وما يملكون في سبيل الله تعالى ورسوله. نحن نريد أن نقول باختصار :

إنه يمكن أن يكون هناك تدين بلا تصوف، ولكن هذا التدين يصبح محرومًا من قوام الإحسان. أي أن حياة إسلامية مجردة من التصوف- الذي هو تربية معنوية- لا يمكن أن توصل أي شخص إلى قوام وحال العبودية التي شعارها:« **اعبد الله كأنك تراه**».

-**ألتون أولوق**: سيدي أن قراء التون اولوق هم أحباب لشخصكم الكريم قلبيًّا، وهؤلاء الناس يعدّون أنفسهم سعداء لتواجدهم معكم في رحاب القلب. فماذا تريد أن تقول لهم عن التصوف في الختام؟

-**المؤلف**: إضافة إلى ما قلناه حتى الآن فأنا أريد أن أذكر طائفة من النصائح والمواعظ التي تمسك بها أهل الله بإصرار ومنها:

إن التصوف هو تربية معنوية تعني السعي إلى اكتساب أخلاق رسول الله ﷺ. وهو حال الوجد في العبادة، وحال الفضيلة في المعاملات. وهو أيضًا التوجه بعشق إلى خالق

الكائنات ﷻ، وإلى رسوله الكريم ﷺ ، لأن أحبّاء الحق الذين جعلوا المولى ﷻ ورسوله ﷺ في مركز المحبة -بتوجه وعشق خالص حقيقي- قد أصبحوا أحباب الإنسانية كلها إلى الأبد.

الألفة والصحبة مع الصالحين تصلح المؤمن، لأن السريان بين الشخصيات هو من خواص الطاقة النورانية. فالصالحون الذين طعّموا الأرواح بالنظام والمعنوية هم أشخاص قد طهروا نفوسهم، وصرفوا أنظارهم عن زخرف الدنيا وزينتها، وامتلأت قلوبهم بنور إلهي. والألفة معهم تجعل العبد عبدًا تستفيد المخلوقات كلها من يده ولسانه.

المحبة خط يمتد بين قلبين، والإنسان يفتن ويندهش بمنح القلب، وعلى هذا النحو يجب على المؤمن استعمال إكسير "المحبة" في سعيه في كل مجال وبكل وسيلة.

إن تبديل العلم إلى عرفان هو الوسيلة لمعرفة الحق ﷻ في القلب. والكائنات هي جعبة الحكم والأسرار. والمعرفة ليست المشاهدة، بل هي معرفة الحكمة والأسرار.

إن تخلص القلب من غلظته الجسدية وتلحفه باللطافة والرقة هو سبيل القرب من الله تعالى. فالمؤمن الذي يحيي قلبه يتلمس طريقًا للخلود. أما الفرد الذي يتلحف قلبه بالشهوة يفقد صفة الإنسان على قدر ما أحيط بقلبه من شهوة.

أساس أخلاق الإسلام هو عشق الرب ﷻ والتوجه إليه بإخلاص ومما لاشك فيه أن الخدمة هي العلامة الوحيدة الفريدة لهذا التوجه.

المحبة هي أكثر الوسائل سحرًا فهي تقلب المشقات رحمات.ومهما كان ثقل الخدمة التي تؤدى بالمحبة فإنها تقبل بسهولة وتتم بيسر. وفى نفس الوقت فإن قيمة أي خدمة ترتبط بحجم التضحية التي تبذل للوفاء بها وترتبط بأدائها كأنها عبادة.

والخدمات الخالصة الحقيقية هي رأس مال النضوج والإكتمال القلبي، والقلوب التي وصلت إلى هذا الكمال هي: «محل نظر الحق ﷻ».

إن أسماء «**الرحمن والرحيم**» التي ذُكرت كثيراً في القرآن الكريم هي من صفات جماله ﷻ، لذا يجب أن تتحول الرحمة والشفقة إلى خصلة أصيلة في الإنسان المؤمن.

الشخص المحروم من الشفقة والذي لا يعرف التأسي والرحمة هو شخص فقد مفتاح باب أكبر خزائن السعادة كلها، ويجب علينا أن نتألم أكثر للذين حرموا من الرحمة، ولم يعرفوا معنى التأسي والمواساة.

إن سبب الظلم هو الحرمان من المحبة. فالإنسان الذي لا يحب يتحول إلى وجود قاس متوحش طوال الوقت، فثمرة العشق الحقيقي هي الشفقة والرحمة. ولا يمكن الإعتقاد أن

هناك قلبا أو بلدا على وجه الأرض تستعصي على الفتح بالشفقة والرحمة، لأنه لو كان في مقدور الشمس ألا ترسل الضوء والدفء لكان في مقدور الأرواح القوية ألا ترحم وتتأسى للمخلوقات.

وقد نُقل عن الحلاج صاحب المكانة الفريدة في القلوب العاشقة أنه قدم نموذجًا كبيرًا في الإيثار القلبي عندما كان يتوسل إلى الله متضرعًا قائلا: «يا رب أعف عمن يرجمني قبل أن تعفو عني»

لو أردنا أن نعرف درجتنا في الطريق المعنوي يجب علينا أن نحلل سلوكياتنا وحالنا وتصرفاتنا.

إن الأنانية والخيلاء هما سرطان الطريق المعنوي. وقد ابتلي إبليس باللعن والخسران بسبب أنه شعر بالخيلاء والعجب.

يقول مولانا جلال الدين-قدس سره-: «من المهم أن تكتسب طبيعة الوردة، أي أن تكون وردة إلى هذا العالم كله تحتضنهم في رحاب الربيع وتنسيهم عذابات الشتاء، لا ليروا أشواكها ويتألموا مثلها».

ولعل نصيحة السيد عبد الخالق اَلْـكُجْدُوانيِّ القيّمة الخاصة بالصلاح الروحي وبجماليات السلوك هي أفضل دستور للقلب وأجمله لطريق التصوف إذ يقول:

«أي بني هذه وصيتي إليك: لتكن على علم وأدب وتقوى في أحوالك كلها. اقرأ كتب السلف، وامض في طريق أهل

البيت وأهل السنة والجماعة. تعلم الفقه والحديث واهرب من الصوفية الجهلاء. أقم صلواتك دائمًا مع الجماعة. لو وجدت ميلاً إلى الشهرة في قلبك فلا تؤذن ولا تُصَلِّ إمامًا. ابتعد عن الشهرة بقدر ما تستطيع. فالشهرة آفة. لا تتعالى أبداً، بل وطن نفسك على التواضع. لا تتول عملاً لن تستطيع أن تقوم به لأنه فوق طاقتك.

لا تتدخل في أعمال أناس ليسوا على علاقة بك. لا تقم أو تقعد أبدًا مع الفاسقين، وحافظ على الإعتدال في كل أمر. تجنب التخمين والظن، ولا تنخدع أكثر بسماع الصوت الجميل، لأن هذا يُظلم الروح، ويجلب النفاق في النهاية. ومع هذا لا تنكر الصوت الجميل؛ لأن الأذان والقرآن الذي يُقرأ بصوت جميل يحيي القلوب والأرواح. كُل قليلاً وتكلم قليلاً، ونم قليلاً. فِر من الحمقى والغافلين فرارك من الأسد.

اختر العزلة في أوقات الفتنة. ابق بعيدًا عن الذين يعطون الفتوى طلبًا للمنفعة فيضيعون الدنيا، وعن الأغنياء المتكبرين وعن الجهلاء. كُل حلالاً واحذر الشبهات وتمسك بالتقوى عند الزواج؛ لأن عكس ذلك تمسك بالدنيا ومخالفة للدين في ذلك الطريق.

لا تضحك كثيرًا واجعل ضحكك تبسمًا لا قهقهة، فالضحك الكثير يميت القلب. ولكن لا تكن عابس الوجه، لأن التبسم صدقة. وانظر لكل شخص بعين الشفقة، ولا تحقرنّ أحدًا.

لا تتطرف في التزين والتجمل الظاهري. وارتدِ البسيط الجميل؛ لأن الإعتناء بالمظهر الخارجي يأتي من خراب الداخل وفساده. لا تجادل ولا تطلب شيئاً من أحد.

واستغن عن الناس، وكن غنياً بالقناعة وحافظ على وقارك. عظِّم ووقِّر من علموك وقاموا بتربيتك وتركوا أثرًا فيك، اخدمهم بروحك وبكل ما تملك، واجعل حالك تبعًا لحالهم. ولن يفلح الغافلون الذين يستهزؤن بهم ولا يحترمونهم. لا تمِل إلى الدنيا وإلى أهلها الغافلين.

رقِّق قلبك بالحزن وبلِّل عيناك بالدموع ليقوى بدنك على العبادة. اخلع عملك والجأ إلى الدعاء وصاحب الصالحين.

واجعل التواضع لباسك. اجعل علوم الدين الظاهرة والباطنة رأس مالك واجعل منزلك مسجدًا أو قريبًا من ذلك تكن من أحبّاء الحق ﷻ..اللهم اجعلنا ممن يتقيدون بهذه النصائح والوصايا آمين...

تساؤلات حول التصوف [٨٤]

- **شيخَنا الكريم: في بداية لقائنا هذا، هلَّا تعرِّف لنا التصوف وتوضِّح هذا المفهوم.**

إن هدف الإسلام الأساسي هو أن يكون الإنسان كاملًا مستقيمًا، والسبيل إلى ذلك هو أن يحيا الإنسان دينه ظاهرًا وباطنًا، في إطار ينسجم العقل فيه مع القلب، ويتحد الجسد مع الروح.

وليس التصوف إلا سعياً لبلوغ هذا الهدف، ومقصوده الوحيد وغرضه الفريد أن يكون العبد عبدًا مؤمنًا صالحًا يرضى الله عنه.

وهذا ما يُوجِب على المرء أن يسعى ليدرك الإسلام إدراكًا سليمًا بعيدًا عن الشبهات، ويحياه في جوٍّ تتكامل فيه العناصر الأربعة: **الشريعة، والطريقة، والحقيقة، والمعرفة.**

٨٤ هذا الحوار الصحفي لمجلة الرحلة التركية مع المؤلف، العدد ١٤، ص ١١٨-١٣١، يناير ٢٠١٢.

وإذا أردنا أن نضرب هنا مثلًا عن هذه العناصر ابتغاء توضيحها نقول:

- الإسراف في الشريعة هو الأكل بعد الشبع.
- والإسراف في الطريقة هو الأكل حتى الشبع.
- والإسراف في الحقيقة هو الأكل بالقدْرِ الكافي، لكن بغفلة عن ذكر اللّه ﷻ.
- والإسراف في المعرفة هو كل ما سبق، وألا يرى العبد التجليات الإلهية في النِعَم التي بين يديه؛ ذلك أن كل كائن خلقه ربنا سبحانه وتعالى دليل على عظمته وربوبيته وقدرته المطلقة.

إن التصوف هو البُعد الداخلي للدين وجوهره وقلبه، فهو كاللبِّ من كل شيء. وحين نُهمل هذا الجانب من الدين الذي لا ينفك البتة عن التقوى، لن يبقى بين أيدينا إلا مجموعة من القواعد الفقهية الجامدة.

لكن ينبغي أن نذكر هنا أنَّ ثمة أناس لم يدركوا حقيقة التصوف –لا سيما في هذه الأيام التي كثُر فيها من يدَّعي التصوف– فرأوا كل أمر من منظور الأحكام الباطنية، واستخفوا بالأحكام الظاهرية؛ فتراهم يرفعون شعار:

«لا ضير في عملك ما دام قلبك طاهرًا»

مُطلقين العنان لغرائزهم ونفسانيَّاتهم، وساعِين لإظهار التصوف على هذه الصورة البعيدة أشد البعد عن التصوف الحقيقي.

ويؤسفنا أشد الأسف أن نجد في هذا الزمان من يهمل الجانب المتعلق بالتقوى في المولوية، إذ يحاول أن يُظهِر السَّماع -وهو في الأصل ذكرٌ للّه تعالى- على أنه موروث شعبي ومجلس للموسيقى؛ ومثل هؤلاء بالطبع ليس لهم صلة بروح «المثنوي الشريف» لا من قريب ولا من بعيد.

فالتصوف الحقيقي هو الاقتداء بحياة النبي ﷺ بكل تفاصيلها الظاهرة والباطنة. فرسول الله ﷺ كان أتقى البشر وأقربهم إلى اللّه تعالى، ومع ذلك قام بالتكاليف الشرعية الظاهرة وحمل المسؤولية وأدى الأمانة، لذلك ينبغي لكل مسلم يقتدي بهذا النبي الكريم ﷺ أن ينجز مهامه وجميع الفروض والواجبات، مهما كان موقعه الروحاني ومكانته بين الناس.

فالشريعة التي نَصِفها بأنها الأحكام الظاهرة للإسلام هي كالهيكل الذي يُقيْم الجسد، غير أن دين الإسلام إن كان قائمًا على هيكل دون روح فسيبدو ناقصًا منفِّرًا، وهناك بالطبع من يريد عن عمد أن يظهره على هذا الشكل.

والتصوف الحقيقي هو فهم الإسلام بالطريقة التي فهمها رسول اللّه ﷺ وصحابته، والتي تحفُّها الفيوضات والروحانيات،

ثم السعي للعيش بسلام وعشق ومحبة. هو رحلة تسمو بالإنسان لتوصله إلى أعلى درجات الروحانية التي وصلها الصحابة الكرام بفضل تربية رسول الله ﷺ وتزكيته إياهم. وهو مدرسة معنوية تتربى فيها النفوس، وتتطهر على أعتابها القلوب، على أيدي المربِّين ورثة خاتم المرسلين. والداخلون هذه المدرسة، والمجاهدون لقطع المسافات للوصول إلى أعلى الدرجات، والساعون إلى مرتبة «الإنسان الكامل»، هم أهل «السير والسلوك».

لقد جعل ربنا جلَّ جلاله أصغر طاقة وضعها في عبده أساسًا في تحديده التكاليف الشرعية الملقاة على عاتق الإنسانية جمعاء، ولا ريب أن هذا الأمر يدل على رحمته المطلقة بعباده. ولم يقتصر فضله ومنُّه على ذلك فقط، بل فتح سبحانه سبلًا وأبوابًا لمن لديه استعدادات وقدرات فطرية ليست عند غيره على أداء التكاليف العامة، كي يترقى في طريق السير إلى الله ﷻ، ويروي أشواق الروح وتطلعاتها الإيمانية، عبر النوافل من العبادات، والفضائل مثل الزهد والتقوى والإحسان، إضافة إلى المهام الشرعية، فكان من الطبيعي والضروري وجود طريق يضمن للمؤمنين كل ذلك، وهذا الطريق هو التصوف.

والتصوف قبل أي شيء هو العمل على تنظيم الحياة على أساس الكتاب والسنة؛ هو حرب ضَروس لا هوادة فيها ضد

النفس، فهذي النفس طاقة مليئة بالأسرار والألغاز يجب تربيتها تربية يمكن لنا أن نصفها بأنها «الجهاد الأكبر».

والتصوف نظامٌ لتطهير النفس من شوائبها كلها، وطريق الوصول إلى التقوى عبر الحذر من كل شيء يبعد المرء عن ربه سبحانه وتعالى.

والتصوف يوضِّح لنا مع كل طرفة عين ونَفَس نتنفَّسه قواعدَ العبودية لله تعالى -عبر الفيوضات والروحانيات- ويُشعِرنا بأننا في امتحان، فيكشف لنا أسرار هذه القواعد.

وهو سعي المرء كي يكون عبداً صالحاً لله ﷻ من خلال معرفته ومحبته.

والتصوف هو معرفة الحق تعالى بالقلب، والارتواء من ينبوع التسليم لله تعالى، ونقل «الإيمان» إلى مقام أعلى وأسمى، إلى مقام «الإحسان».

والتصوف هو فن حُب الله تعالى من خلال الرضا بقضائه في كل زمان ومكان. وهو مهارة الحفاظ على توازن الفؤاد أمام تقلبات الحياة وما تحويها من مفاجآت وظروف ونائبات، فيكون العبد في كل أحواله عبدًا صالحًا طيِّبًا بتركه الشكوى والتذمر.

والتصوف مدرسة يتعلم فيها العبدُ الزهدَ؛ فهو تخليص الفؤاد من الرغبات النفسانية والنزوات العابرة في هذه الدنيا بإدراك العبد أن لا عيش إلا عيش الآخرة.

وخلاصة ما فهمناه عن التصوف هي أن التصوف معرفة رسول الله ﷺ عن قرب، والتخلق بأخلاقه الرفيعة، والسعي لعيش الإسلام بأسلوب يناسب روحانياته. وهو «حياة التقوى» التي عاشها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في جوٍّ من الوجد والحب والمحبة.

أما ما بقي خارج إطار ما ذكرناه ولم يأخذ جوهره ومعياره من القرآن والسنة فهو باطل مهما ألصق بالتصوف.

- **إذا تصفحنا تاريخ التصوف سنجد تعدد المدارس وتشعب الطرق وتنوع المفاهيم، حال التصوف في ذلك كحال العلوم الإسلامية الأخرى مثل التفسير، والحديث، والفقه. فهلّا تخبرنا عن السبب وراء ظهور الطرق الصوفية والحكمة من ذلك؟**

لقد ذكرتم في سؤالكم تعدد المذاهب والمدارس في العلوم الإسلامية الأخرى، والتصوف ليس بمعزل عن تلك العلوم، إذ كان نشوء الطرق فيه نتيجة طبيعية للحاجات والظروف.

إن ظهور التصوف كعلم وطريقة نظرية وعملية يعود إلى القرن الثاني للهجرة. ففي عهد رسول الله ﷺ لم يكن هناك أي مذهب من مذاهب الكلام أو الاعتقاد أو الفقه، ولم تكن هذه العلوم مدونة، لكن الأحكام العقائدية والفقهية وغيرها كانت تطبق آنذاك، وكان رسول الله يعلمها لأصحابه. وبعد مدة من

الزمن بدأ طلاب كبار العلماء، مثل علماء الفقه الإسلامي بجمع اجتهادات المجتهدين ووضعها مع بعضها بعضًا، وشكلت هذه العملية بداية ظهور «المذاهب» حيث جُمعت آراء كل عالم كبير تحت اسمه.

لقد كان محتوى التصوف كما هو محتوى العلوم الإسلامية الأخرى موجودًا في عصر النبي ﷺ، المحتوى القائم على مشاعر «الزهد» و«التقوى»، وآفاق «الإحسان» و«الربانية» التي أراد أن يوصل الناس إليها. وكل الأسس التي يقوم عليها التصوف الصحيح موجودة في القرآن الكريم وفي حياة رسول الله ﷺ وأصحابه. ومع مرور الوقت ركن المسلمون إلى الدعة، وتركوا جهاد النفس، فقست قلوبهم إلا من رحم الله، فثبت على الحق ثلة من الأفذاذ لم يجرفهم تيار الدنيا وخضم الحياة، ووقفوا سدودًا منيعة أمام سيل المادية العارم لينقذوا البشرية. ولم يكن مقصود هؤلاء العلماء اصطناع طرائق أو جعل البدع في الدين، بل تمثل الإسلام بصورة تناسب جوهره، وأداء العبادات بـ «الإحسان» و«الخشوع» في ضوء مبادئ القرآن وهدي السنة.

فكان ذاك السلوك من العلماء العاملين، وذلك الاتِّباع من المريدين السالكين، وتلكم الجلسات والحلقات من التوجيه والإرشاد والوعظ والإمداد، فجُمعت هذه الكلمات والمواعظ والسلوكيات والمجاهدات، وتشكَّل من خلالها نظام روحي،

هذا النظام كان هو الطرق الصوفية التي كانت كالمدارس والمناهج التربوية حملت أسماء مشايخها وأصحابها، فظهرت الطرق التالية: النقشبندية، والقادرية، والرفاعية، والمولوية، والخلوتية، والجلوتية، وغيرها.

إن الطريقة مصطلح للأصول التي يتَّبعها قسم من المتصوفين ابتغاء الوصال مع الله تعالى. وما السبب وراء ظهور الطرق المتنوعة في هذا الميدان مع مرور الوقت، إلا الحاجة لذلك، لا من باب الاختلاف والفرقة، فالناس مختلفون في مزاجهم وشخصياتهم وطبائعهم، لهذا فإن تنوع الطرق -بناءً على هذه الحقيقة- يضمن تربية النفس بحسب ما يوافق طبيعة الشخص، وتطهير القلب والوصول إلى الكمال الروحي.

فعلى سبيل المثال؛ يجد الشخص ذو المزاج الجيَّاش سهولةً في الارتقاء وفق الأصول المتبعة في الطريقة القادرية؛ في حين يجد الشعراء والفنانون والرومانسيون ضالتهم في المولوية؛ أما من يسيطر عليه الوقار والمزاج الهادئ، ولديه استعداد داخلي عالٍ، فيتوجَّه تلقاء النقشبندية، فيجد سهولة في تلقي الفيوضات باتباع هذه الطريقة، والسير وفق أصول التربية فيها، وهذه القاعدة تُطبَّق على الطرق كلها حسب خصائصها.

وهكذا نجد أن تنوع الطرق الصوفية هي رحمة من الله ﷻ، فمن الكلمات المشهورة قولهم: «إن عدد الطرق إلى الله تعالى

كثير كثرة عدد أنفاس كل مخلوق». لكن المهم في هذا الشأن هو أن تكون وفقًا لحدود القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

لقد علَّم رسول الله ﷺ الذكر الخفي لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، والذكر الجهري لسيدنا علي رضي الله عنه. ينبغي أن نعلم أنه ﷺ قد أعطى أورادًا مختلفة لعدد من الصحابة،[85] شكل أحيانًا حلقات ذكر جماعية منهم. فكان تنوع تطبيق واختيار الأوراد والأذكار -التي هي أهم وسائل التربية الصوفية- هو السبب الأساسي في تنوع أصول وطرائق التربية المعنوية، وهذا يُظهر لنا جميعًا أن مصدر الطرق الصوفية هو نفسه مصدر المذاهب الفقهية؛ ألا وهو الكتاب والسنة.

- **لا يخفى على أحد أنه حين تُذكَر كلمة «التصوف» في أي وسط كان، فإن أول ما يرد العقل مواضيع خلافية جدلية مثل «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» و«الرابطة». فما هي وجهة النظر الصحيحة في مثل هذه المواضيع؟**

دعني أولًا أخبرك أن لا علاقة لـ«وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» بالشرك والكفر كما يدعي بعض من الناس؛ لا بالعكس تمامًا، هما الإحساس بلذة التوحيد في أعماقك، ثم مشاهدة

---

٨٥. انظر: البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩، الدعوات ١١؛ مسلم، الذكر ٧٩، ٨٠؛ ابن ماجه، الأدب.

مظاهر التوحيد في هذا العالَم والتفكر فيها. وليس لهذَين المفهومَين أي صلة بمذهب أفلاطون الحلولي القائم على الشرك تمامًا.

إن «وحدة الوجود» مفهوم صوفي وضعه الشيخ محي الدين بن عربي ونظَّمه، وأما «وحدة الشهود» فقد وضعه مجدِّد الألف الثاني الإمام الربَّاني السرهندي. والمفهومان في الأصل يوضحان الموضوع نفسه ولكن من وجهتي نظر مختلفَتَين، أي إن الاثنين إيضاح للفرق بين صفة الله تعالى «الوجود»، و«الوجود أو الكينونة» في عالم الشهادة. والفارق الوحيد بينهما هو أن مفهوم «وحدة الوجود» هو الإحساس بالتوحيد، أما «وحدة الشهود» فهو التعمق في التفكير في تجليات التوحيد عبر مشاهدتها وتأملها.

والكائنات في هذا العالم الذي نسميه عالم الشهادة موجودة وجودًا نسبيًا، أي إنها لا توجد في وجودها لوحدها، بل هي موجودة على أنها مظهر من مظاهر صفات الوجود المطلق وآثاره وأحكامه وقدرته وإبداعه. ومع أن الذات الإلهية تُظهِر إبداعها وقدرتها وحكمتها وتدبيرها وتصرفها وصفاتها في الكائنات كلها، إلا أن هذه الذات لا تَظهَر أبدًا في عالم الوجود، أي أن عالم الوجود هو ظهور للصفات لا للذات؛ ونستنتج من ذلك كله أن الذات الإلهية مقدسة ومنزهة عن كل شيء.

ولتوضيح هذه الفكرة نضرب المثل التالي: إن انعدام الشمس يصاحبه انعدام ضوئها، وعلى الرغم من أن ضوء الشمس لا ينفصل عن الشمس، إلا أن هذا الضوء ليس الشمس ذاتها.

غير أن الاعتقاد بأن كل شيء هو الله سبحانه، وأن الكون هو الإله، اعتقادٌ يقود إلى المادية التي تصور «الواحد» كأنه «الكل». ومذهب الحلولية الذي وضعه أفلاطون مصدره هذا الوهم والهاجس البعيد أشد البعد عن الصواب، وقد أراد بعض ممَّن ضلوا وضع فكرة «وحدة الوجود» داخل خانة الاعتقاد هذه وقبولها، لكن المتصوفة الحقيقيين دائمًا كانوا يرفضون مثل هذا الاعتقاد المنحرف.

ففكرة «وحدة الوجود» الحقيقية تقول إن كل شيء موجود بوجوده سبحانه وتعالى، أما ذاته فهي منزهة عن الأشياء كلها. أي أن الكون مظهر لصفات الحق تعالى، أما ذاته فهي ليست الكون، لأن الخالق لا يمكن أبدًا أن يظهر على شكل المخلوق، ومن لديه قناعة عكس ذلك فهو واقع في الكفر الصريح، لأن الله جل جلاله «مخالف للحوادث»، أي لا شبيه ولا نظير ولا شريك له، لذلك فهو منزَّه عن الصفات البشرية جميعًا.

وإذا انتقلنا الآن إلى موضوع الرابطة الذي ذكرتموه في سؤالكم نقول: الرابطة هي الحفاظ على المحبة تجاه المحبوب. ولعل خير مثال هو تلك المحبة التي كانت في قلوب الصحابة

الكرام ﷺ للنبي ﷺ، وأبرز هؤلاء في محبة النبي ﷺ هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وبفضل ذلكم الارتباط القلبي بين الصحابة ورسول الله، حدث الانعكاسُ والانصباغ في أرواحهم، وعنهما انتقلت أحوال النبي إلى صحابته. ولهذا السبب كان الصحابة الكرام يتلذَّذون لذة كبيرة حين كان يقول أحدهم للنبي: «فداك أبي وأمي يا رسول الله!» قولًا صادقًا نابعًا من قلبه. فتطهرت قلوبهم وسكنت جوراحهم حين افتدوا بكل شيءٍ في سبيل الله ورسوله. ولأنهم فهموا معنى الحديث الشريف «المرء مع من أحب» وعملوا به، صاروا في معية النبي حالًا وفعلًا، وإحساسًا وفكرًا.

ويشير سيدنا الحسن رضي الله عنه سبط النبي ﷺ إلى عِظَم موقع الرابطة في التكامل المعنوي، فيقول واصفًا حالته الروحية التي كان فيها حين سأل خاله هند بن أبي هالة عن حلية النبي ﷺ:

«سألت خالي هند بن أبي هالة -وكان وصَّافًا- عن حلية رسول الله ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا» (٨٦)

إن كلام سيدنا الحسن رضي الله عنه يدل بالفعل على الرابطة، لأن الاستماع إلى وصف النبي ﷺ هو من أفضل الوسائل لتأسيس

٨٦ الترمذي، الشمائل، ص١٠.

رابطة قلبية معه، وهذا يعني أن الرابطة التي هي من أصول التصوف مأخوذة من تطبيق النبي ﷺ وأصحابه إياها.

والرابطة لغةً هي الربط والعلاقة، ومن هذا المنطلق لا يوجد كائن حيٌّ في هذا الوجود إلا وله رابطة، فالرابطة تشمل المخلوقات كلها، وكل الأشياء مرتبطة ببعضها بعضًا. وهذه الرابطة رابطة قلبية شعورية موجودة لدى الحيوان تجاه صغيره، والوالدَين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، والشاب تجاه خطيبته، والمرء تجاه من يتَّخذه قدوة لنفسه. وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

وليس أنفع ولا أنجع ولا أروع للمسلم من صحبة الأولياء والصالحين، وإلا يكن الحال كذلك، وجَدْتَ على الجانب الآخر صحبة الفارغين الضائعين والغافلين؛ لأن الطبيعة البشرية تبحث دائمًا عمَنْ تصاحبه، وتعيش في كنفه، وعن جماعة ترتبط بها، وتحيا في ظلالها، وهو ما عبر عنه المثل القائل: «الطبيعة لا تعرف الفراغ».

ومن رحمة الله سبحانه لنا أن حدَّد لنا الاختيار الصحيح، وترك لنا حرية اتباعه، فقال في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

وعندما تمعن النظر والتأمل في بلاغة الأمر القرآني ودلالاته، تجد الحق تبارك وتعالى لم يأمر المؤمنين بأن «كونوا صادقين» بل قال: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ لأن النتيجة الطبيعية لصحبة الصادقين هي أن يصبح المرء صادقًا، مثلما هي النتيجة الطبيعية لصحبة الفاجرين هي أن يمسي المرء فاجرًا.

وهناك منطق آخر يفكر به الرافضون لمبدأ الصحبة، المتعالون على اتباع الصالحين، المهووسون بهوى النفس، إذ يقولون:

«لا حاجة لنا للعباد الصادقين، فالقرآن يكفينا، ولدينا العقل الذي نعرف به معاني القرآن ونفسره».

والخطأ الفادح الذي ارتكبته الحداثة والعلوم الوضعية بأن أخضعت الحقائق كلها للاختبار والتجريب لم يقدم للإنسان إلا الهلاك المادي والمعنوي. فليس كل شيء يمكن إخضاعه للبحث والتجربة والاختبار المادي، ولا حتى للتفكير العقلي أو المنطق العلمي، فعقل الإنسان محدود، وحواسه قاصرة، وعليه أن يستفيد من تراكم الخبرات التي سبقته، والتي استغرقت دهورًا طويلة، وتجارب مديدة، وعقولاً وقلوبًا لا حصر لها.

ويقول الشيخ عبيد الله أحرار: «إن الأمر الإلهي في قوله تعالى:﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ تعني الصحبة والمعية دائمًا. أي أن للمعية في هذه الآية وجهين لأنها ذُكرت بصراحة: أحدهما فعلي والآخر اعتباري، أما المعية الفعلية فهي وجود العبد فعلًا

في مجالس الصادقين بقلب حاضر، وأما المعية الاعتبارية فهي تخيُّل أحوال الصادقين في غَيْبَتهم».

إن غاية الرابطة هي التعلق بحبل الله، والاتصال بالسند النبوي عبر السلسلة الطاهرة من أولياء الله الذين توارثوا النور والأخلاق والصحبة كابرًا عن كابر، في سلسلة تمتد إلى رسول الله ﷺ، فيما يشبه نور الشمس التي تعكسها الأقمار على كواكب المجموعة الشمسية، على حسب درجة قرب الأقمار وبُعدها من الشمس والكواكب. وإذا ما كانت هناك صحبة بالجسد إلى جانب الصحبة المعنوية مع أولياء الله، فهي «نور على نور». إلا أن الاقتصار على الصحبة الفعلية الجسدية في التربية الصوفية غير مقبول، لأن الإنسان قد يلازم المرشد الكامل، ولكنه لا يحظى بنصيبه بسبب غفلته. في حين نرى أن المريد الحقيقي وإن كان في بلاد بعيدة عن مرشده ينال ما يناله من فيوضات كثيرة وذلك عبر مشاعر الاحترام والتبجيل التي يكنُّها لمرشده، والعشق والشوق له، والارتباط معه. ومن أقوال كبار أهل الدين:

«من في اليمن بجانبي، ومن في جانبي في اليمن».

فالأمر المهم هو عدم فقدان مشاعر الصحبة القلبية مهما كان المكان الذي أنت فيه. يقول رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا».[٨٧]

---

٨٧. أحمد بن حنبل، جـ٥، ٢٣٥.

إن الرابطة التي تُعدُّ من الأصول المهمة جدًا في التربية الصوفية موجودة في الطرق كلها تقريبًا مهما كان الاختلاف بينها في الاسم والأسلوب. بيد أن الرابطة- بدءًا من القرن التاسع عشر- وضعها بعض الأشخاص ضمن مسائل الإيمان والكفر، وهذا ما عرَّضها للانتقاد الشديد. مع أن الرابطة- كما ذكرنا سابقًا- حالة طبيعية أثبتها علم النفس، ولا علاقة لها أبدًا بالاعتقاد.

يقول عبيد الله أحرار في هذا الموضوع:

«ألا يقع المرء في الكفر حين يكون قلبه معلَّقًا بالمال والملك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟ وهل يكون مخطئًا حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه؟»[٨٨]

وصفوة الكلام هي أن المريد يسعى لتقليد مرشده في أعماله الصالحة وأحواله الحسنة عبر المحافظة على المحبة التي يشعر بها تجاه مرشده في قلبه دائمًا وأبدًا. والمحافظةُ على نضج هذه المحبة والاحترام والتبجيل للمرشد دائمًا على هذا النحو، يُحيي فؤاد المريد. وإذا كان لصحبة الصالحين أثر عظيم، فما بالنا بالتأثير الذي تُحدثه محبتهم.

---

٨٨. علي بن حسين صافي، رشحات عين الحياة (قارن: علي أصغر مُعينيان)، طهران ٢٥٣٦/ ١٩٧٧، جـ٢، ٦٣٦-٦٣٧.

والمحبة هي إحدى أزواد السفر، وإحدى مطايا الطريق؛ بيد أن التجاوز في مقدار المحبة التي تُعدُّ أساس الرابطة، تجرُّ المرء إلى الإفراط. لهذا السبب، ليست الرابطة تجاوز الحدود في السلوك لدرجة إضافة الألوهية إلى المرشد المُتَّبع. فمثل هذه المحبة –والعياذ بالله– تُوقِع العبد في مصيدة الشرك، لأن المرشد ما هو إلا «واسطة» بالنسبة للمريد، وإيصال الواسطة بالمحبة الزائدة إلى مرتبة «الغاية» هو خطأ ما بعده خطأ.

وينبغي ألا ننسى أن كل عبدٍ ما خلا الأنبياء عاجزٌ وناقص، وحتى الأنبياء أنفسهم قد يقعون في زلَّات بسبب طبيعتهم البشرية، لكنهم يُوجَّهون إلى الطريق الصحيح بسبب تلقِّيهم التأييد الإلهي والمدد الربَّاني. ومهما كان من الضروري إظهار المحبة والاحترام والتبجيل لكبار أهل التصوف والروحانية، فمن الضروري مراعاة الحدود الشرعية في تعظيمهم.

- **إذا نظرنا في التاريخ سنجد الكثير من المناظرات والمناقشات والجدالات في المواضيع التي تتعلق بالدين والعلم في بلاد المسلمين كلها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها الجدال الذي كان بين طريقة قاضي زاده والطريقة السيواسية، وفي الحقبة الأخيرة من الحكم العثماني المجادلة التي دارت بين الشيخ صفوت أفندي والمفكر إسماعيل حقي الإزميري، فماذا ينبغي أن يكون موقفنا في هذا الشأن؟ وهل ثمة منافسة بين التكية والمدرسة أو هل يمكن استبدال إحداهما بالأخرى؟**

في الواقع لا توجد أي منافسة بين المدرسة والتكية، بل كلُّ واحدة تكمِّل الأخرى، فالعلم يكون قيِّمًا إن صاحبه تقوى، وعلم بلا تقوى لا يوصل الإنسان إلى الحق والخير.

فليست العبادات -على سبيل المثال- مجرد حركات تُؤدَّى ولا طقوس محفوظة، إنما غايتها الخشوع، ووسيلتها الخشوع، وهذا الجانب القلبي الأصلي فيها أكَّده المولى جل جلاله في كثير من آياته. حتى الإيمان نفسه، من شروطه التصديق بالقلب والإقرار بالجوارح بعد الإقرار باللسان، فالإقرار باللسان لا يكفي لتحقيق الإيمان، بل لا بدَّ من نفوذه إلى القلب؛ والتصوف هو الذي يهتم بذلك التواصل ما بين الجانبين الظاهري والباطني من أعمال العبادات. ولا سبيل إلى تحصيل حقيقة العلوم الظاهرية دون الاعتماد على المشاعر القلبية بجوار القواعد العقلية والأساليب العقلانية، فالعلم الذي يفتقد الخشوع كجسد فاقد للروح، علم لا ينفع، وها هم علماء بني إسرائيل حصَّلوا علمًا جمًّا لم يتجاوز عقولهم إلى مشاعرهم ولا إلى قلوبهم، فكانوا كما قال الله تعالى:

﴿...كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ (الجمعة، ٥)

إن الفلسفة تصل إلى الحقيقة عبر وسيلة وحيدة وهي «العقل». ومع أن جميع المدارس الفلسفية لا تضع العقل في مرتبة عالية مثلما تفعل المدرسة «العقلانية» الفلسفية حين

تُوصِلها إلى درجة القداسة، فإن هذه المدارس كلها تعتمد على العقل وسيلةً وحيدةً للبحث عن الحقيقة، جاهلة أن لكل شيء حدودًا، فلرؤية العين حدود، ولسمع الأذن حدود، وكذا لإدراك العقل حدود يقف عندها؛ لذلك ترى الفلاسفة الساعين لحل ألغاز الكون بعقولهم يفنِّد كلٌّ منهم الآخر.

وهناك تلاقٍ بين علم الكلام والفلسفة في المنهج العقلي إثباتًا للحق ودحضًا للباطل، لكن علم الكلام منضبط بضوابط الشرع، مبنية قواعده على القرآن والسنة، يزاوج بين «العقل» و«النص». غير أن علماء الكلام يقفون عند النقطة التي تنفد فيها طاقة العقل في إدراك الحقائق، وهنا يأتي دور التصوف ودور القلب عبر وسائله الخارقة للطبيعة في المعرفة مثل التسليم، والكشف والإلهام، والسوانح القلبية والتجلي.

وأما الاعتراضات على التصوف من الجانب العلمي فلها سببان أساسيان لا ثالث لهما: الأول هو البعد عن حقيقة التصوف، والثاني هو التركيز على ممارسات بعض من الناس ممن هم ليسوا أهلًا للتصوف والنظر إلى تلك الممارسات على أنها ممارسات صوفية.

ولكل مضمار مستغلُّوه، فلا عجب أن نرى بين الحين والآخر من يحاول استغلال التصوف، فيخرج علينا أحدهم ويدعي قائلًا: «أنا قطب هذا الزمان، أنا غوث هذا الزمان».

وقول مثل هذا بعيدٌ أشد البعد عن روح التصوف الحقيقي، وطلبٌ للشهرة والرياء. وإن نحن قلبنا صفحات التاريخ سنجد أن المتصوفة الحقيقيِّين قد نقدوا مثل هؤلاء، كما فعل رجال العلوم الإسلامية الأخرى.

وليس في التصوف وحده من يحيد عن الطريق ويخرج عن الصراط المستقيم، فها هم بعض من علماء الظاهر يرتكبون الخطأ نفسه. والسبب في ذلك هو ظنهم أنهم قد بلغوا قمة العلم وذروة المعرفة نتيجة الغرور والأنانية، متشبِّهين بإبليس في تكبره وقارون في عجرفته.

إن هدف المعركة التي يخوضها التصوف هو قلع جذور الأنانية والغرور والكبر داخل الإنسان كي يدرك عجزه وفناءه. فانظر -على سبيل المثال- إلى الشيخ خالد البغدادي الذي لُقِّبَ بـ«شمس الشموس» في العلم حين ذهب لزيارة الشيخ عبد الله دهلوي في زاويته، فلم يقم الشيخ عبد الله لاستقباله، وما أذِنَ له في التدريس في محرابه أو منبره، بل كانت أولى مهمَّاته هنالك تنظيف بيت الخلاء. وكذا فعل الشيخ عزيز محمود هُدائي حين كان قاضيَ بورصا وذهب إلى زاوية الشيخ أفتاده، كل ذلك كي يصل إلى إدراك فنائه وعجزه. وكان الشيخ شاه نقشبند من كبار أهل العلم وأساتذتهم، وكان في بدايات انتسابه مكلَّفًا بمهمَّات خدمية مثل تنظيف الطرق، ورعاية الحيوانات المريضة.

ولا ننسى أن الأنبياء أنفسهم قد خضعوا لهذه التربية المعنوية، فأكثر الأنبياء رعوا الغنم، فكانت هذه المرحلة مرحلةً تعلموا فيها التواضع، وأدركوا وسائل الإدارة والحكم، وعرفوا الرحمة بإحساسهم بالمخلوقات.

ومن أسباب الجدال والنقاش بين التصوف والعلوم الأخرى هو عدم إدراك مراتب العلم إدراكًا صحيحًا. ذلك أن العلوم على ثلاثة أقسام:

- علم يعود للعوام.
- وعلم للخواص.
- وعلم لخواص الخواص.

وهذا القسم الثالث (علم لخواص الخواص) قسم خفي لا يدركه إلا أهله، وخير مثال عليه تيك الحادثة التي جرت بين موسى والخضر عليهما السلام وذُكِرت في القرآن. وثمة أمثلة أخرى كثيرة من عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، فبينما كان معاذ بن جبل رضي الله عنه رديف رسول الله ﷺ يومًا، أخبره النبي ﷺ أمرًا وأمره بكتمانه.[٨٩] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».[٩٠]

٨٩. انظر: البخاري، العلم، ٤٩.

٩٠. انظر: البخاري، العلم، ٤٢.

أي ينبغي الحذر أشد الحذر من تبليغ بعض من العلوم الخفية التي تعود لخواص الخواص لمن ليس أهلًا لها، إذ قد لا يفهمونها فهمًا صحيحًا؛ ويقول الشيخ محي الدين بن عربي في هذا الشأن:

«من لم يعلم حالنا فلا يقرأ كتبنا».

وكثيرًا ما أُسيء فهم الكلام الذي نطق به بعض من السالكين المجذوبين أثناء سكرتهم المعنوية، لذلك ترى المرشدين الكاملين يمدون يد العون لمريديهم في مثل هذه الحالات، ويكونون خير سند وخير مدد لهم كي يتجاوزوا هذه المرحلة. غير أننا نجد في التاريخ من بقي محرومًا من حماية المرشد الكامل الفطن، فكانت أقوالهم وكتاباتهم موضوعًا للجدل والجدال.

وها هو الشيخ بهاء الدين نقشبند أحد علماء الحديث الشريف ومن أولياء الله تعالى، والذي ذاع صيته في مدارس بخارى حتى أقبل على دروسه الكثير من العلماء والطلاب والمريدين، حتى اشتكت بقية المدارس من قلة الطلاب فيها، وازدحامهم عند الشيخ بهاء الدين، وضجَّ العلماء -علماء الظاهر- قلقًا من هذا الأمر، فخاطبهم شيخنا بهاء الدين النقشبندي:

«دعوني أخبركم بطريقتنا، وإذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسنة، فأعلمونا كي نكفَّ عنه».

وبعد أن تلقَّى العلماء أجوبة مقنعة على الأسئلة كلها، واستمعوا له لمدة طويلة، لم يجدوا ما يمكن الحديث عنه فقالوا:

«إن طريقتكم طريقة استقامة (أي وفق القرآن والسنة)، ولا اعتراض لنا عليها».

وحين قال أحدهم:

«العمامة التي ترتدونها سبب للشهرة».

أجاب سيدنا بهاء الدين:

«إذا ما صارت العمامة موضوع جدل، فإن عدم ارتدائها أنسب». ثم خلع عمامته وأعطاها لفقير[٩١].

وبعد هذه الحادثة ارتفعت مكانة شيخنا النقشبندي لدى العلماء كلهم.

فما أعظمه من خطأ أن ينكر المرء حقيقة التصوف بالنظر إلى أحوال وأفعال بعض من الجهال الذين يظنون أنفسهم من أهل التصوف، أو بالنظر إلى سلوك مدَّعِي التصوف الذين هدفهم هو النيل منه وصدُّ الناس عن سبيله. وليست العلوم الدينية بمعزل عن المجالات الأخرى، ففيها أيضًا تحدث

٩١. صلاح الدين بن المبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، الورقة: ٧٤ب- ٧٥ب.

الأخطاء والمغالطات، لكن من اليسير على أهل العلم والدراية أن يكشفوها. وكما أنه تظهر مذاهب باطلة تحيد عن الحق، فمن الطبيعي أن تظهر طرق باطلة فاسدة تحيد عن التصوف الحقيقي، وكما أنه من الخطأ توجيه أصابع النقد إلى الإسلام بسبب وجود بعض من المسلمين ممن لم يفهموا الإسلام فعاشوا حياتهم بصورة خاطئة، كذلك من الخطأ رفض التصوف بالنظر إلى ممارسات من أساء فهم التصوف.

إن هدف التصوف الحقيقي هو تطهير العالم الباطني والظاهري كليهما استنادًا إلى القرآن والسنة، واجتهاد الأئمة، والطرائق التي يستحسنها المرشدون الكاملون، وإصلاح القلب كي يكون قاعدة للوصول بالإيمان إلى مرتبة اليقين والعيش بمحبة ووجد.

فالتصوف إذًا جزء من العلوم الإسلامية لا ينفكُّ عنها، وله علاقة خاصة مع الفقه، فهما مثل نصفَي التفاحة، جزءان يكمِّل بعضهما الآخر، إن كان الحديث عن اتباع أوامر الله ونواهيه ظاهراً وباطناً.

فالأصل هو أن العلوم الإسلامية مثل التصوف والفقه والاعتقاد والكلام، كلها لها المحتوى نفسه ولكنها تختلف في مجالاتها، فالإمام الأعظم أبو حنيفة يعرِّف الفقه بقوله: «معرفة النفس ما لها وما عليها».

وتُشكل «معرفة الله حق المعرفة» الجزء الأهم في هذا العلم، وهذه المعرفة هي من أكثر الأمور تأثيرًا في سعادة المرء وهلاكه، ولهذا السبب تطلق كلمة «الفقه الأكبر» على المسائل العقائدية التي وضحها الإمام الأعظم أبو حنيفة. وكان هذا هو حال الفقه في البداية، ولكن حين توسعت مجالات هذا العلم فيما بعد، ابتعدوا عن فقه الأحكام العقائدية والأخلاقية، واقتصروا على الأحكام العملية للعبادات، والأمور القضائية للعبادات، والشروط الظاهرية لصحة العبادة؛ وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة الفقه في أيامنا هذه.

وفي الجهة الأخرى يتابع التصوف الشروط الباطنية لصحة العبادات والمعاملات، والشروط القلبية لصحة السلوكيات، ويعد القواعد الباطنية التي تصحح ذلك كله، ولهذا فإن التصوف يُطلق عليه اسم «فقه الباطن» لأنه يمثل القاعدة الروحانية لعلم الفقه، وهو كنهه وجوهره. فالله ﷻ يقول في كتابه العزيز:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

ثم يتبعها بقوله:

﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[92] مؤكِّدًا على الجانب القلبي في كل عمل.

---

٩٢ انظر: المؤمنون، ١-٢.

التصوف إذًا مدرسة تربوية تعليمية تستند إلى الكتاب والسنة في تعليمها الإنسان تحقيق الأعمال القلبية مثل التقوى والخشوع والتوبة والرضا، واجتثاث جذور الأمراض القلبية مثل الرياء والعجب والكبر والحسد.

ويقول محمد بن عبد الله الخاني في كتابه «الآداب»:

«وتعلُّم علم الظاهر لا يغني عن تعلم علم الباطن، وقد ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين: فمِن الحنفية كابن الهمام، وابن الشلبي، والشرنبلالي، وخير الدين الرملي، والحموي محشي الأشباه وأمثالهم؛ ومن الشافعية كسلطان العلماء العز ابن عبد السلام، والإمام الغزالي، وتاج الدين السبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والعلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي المكي وأضرابهم؛ ومن المالكية كالعارف أبي الحسن الشاذلي، وخليفته الشيخ أبي العباس المرسي، وخليفته الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري، والعارف ابن أبي جمرة، وناصر الدين اللقاني، والشيخ العلامة المحقق العارف أحمد زروق البرلسي وغيرهم؛ ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر الجيلي، وشيخ الإسلام الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي، والشيخ ابن النجار الفتوحي وغيرهم. [وثمة علماء مشهورون منتسبون للنقشبندية، مثل السيد الشريف الجرجاني، والملا الجامي، وعبد الحكيم

السيالكوتي، وعبد الغني النابلسي، وابن عابدين، وشهاب الدين الآلوسي]. وهؤلاء العلماء الأجلَّة بعد التضلع من علوم الظاهر، اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد والإخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل».[٩٣]

وهناك أيضًا الكثير من الشخصيات العالمة في السلسلة النقشبندية، مثل يوسف الهمداني، والشيخ نقشبند، وعلاء الدين العطَّار، ويعقوب الچرخي، ودرويش محمد، والإمام الرباني، وخالد البغدادي، قد وصلوا إلى الذروة في العلوم الظاهرية ونالوا إجازات فيها. وقد أطلق أهل العلم في السلسلة النقشبندية على هؤلاء الشخصيات اسم «خواجكان» أي «الأساتذة» لأنهم تعلموا في المدارس الدينية.

وما أعظم قول الإمام مالك رحمة الله عليه:

«من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق».[٩٤]

ويذكر عبد الخالق غجدواني أن المرء الذي يصل إلى مرتبة فناء النفس هو من يحمل القرآن الكريم بيده اليمنى والأحاديث

٩٣. محمد بن عبد الله الخاني، الآداب، إسطنبول ٢٠٠٩، ص٨-٩.

٩٤. علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت، ١٤٢٢، جـ١، ٣٣٥.

الشريفة بيده اليسرى، ويسلك سبيل الهداية بنوريهما[٩٥]، وينصح أحد مريديه قائلاً:

«تعلم علم الفقه والحديث، وابتعد عن الجهَّال من المتصوفة»[٩٦].

وصفوة الكلام هي أن الزاوية والمدرسة ليستا في موضع المنافسة، ولا يمكن استبدال إحداهما بالأخرى، بل كل منهما تتم الأخرى؛ ذلك أن إدراك الإسلام بالمعنى الكامل والحياة في نوره لا يمكن إلا بتكامل العلم والعرفان.

- **ثمة حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها، وهي دور التصوف في بث نسمات الإسلام التي تبعث الحياة في المجتمعات غير المسلمة عبر التبليغ، وكذلك دوره في الإرشاد في المجتمعات المسلمة والحرص على استقامتها. ولا يخفى على أحد دور الجمعيات والأوقاف ذات الجذور الصوفية في الداخل والخارج، سواء أكان في الأنشطة العلمية والاجتماعية التي يمتد أثرها لأجيال قادمة، أم المساعدات التي تقدمها في المناطق التي تعرضت للكوارث،**

٩٥. عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرة القدس (تحقيق: محمود عبيدي)، طهران ١٣٧٥، ص٣٨٤.

٩٦. عبد الخالق غجدواني، الوصايا، مكتبة بيازيد العامة، قسم ولي الدين أفندي، رقم: ٣٢٢٩، الورقة: ١١أ.

والمشاريع التي تقوم بها هناك إلى جانب المؤسسات المختلفة الأخرى. وكل هذه الجهود والمساعي يقودنا إلى أمرين:

- **إن أهل التصوف قد وسَّعوا مجال نشاطاتهم، إضافة إلى المحافظة على المهمات الأساسية.**
- **دخولهم المجالات الدنيوية، وهو ما يعني بداية عصر جعل الأعمال الصوفية دنيوية.**

فما هو تعليقكم على هذا الأمر؟

ينبغي لنا أن نعرف في البداية أن التصوف يُعلِّم المرء التخلص من الأنانية والنفسانية، ويقدم له وصفة تجعله مؤمنًا خدومًا يتحلى بالقيم النبيلة مثل التضحية والإيثار. فالتصوف من هذا الجانب تغلُّبك على نفسك وبذْلُك الجهد في سبيل التخلص من قيودها. والتصوف يجعل من الأفئدة أمكنة تتنزل عليها الرحمات والفيوضات وتجد فيها المخلوقات الطمأنينة، ويحث الإنسان كي يكون مؤمنًا طيبًا يكون الخير والفائدة في أحواله وأقواله وأفعاله. لذا فإن الخدمات الاجتماعية أكانت خدمة للإنسان أو الحيوان أو النبات موجودة أصلًا في جوهر التربية الصوفية ولبِّها، وليست أمرًا جديدًا في مضمارها.

لذلك فإن انتقال هذه الخاصية الموجودة في لبِّ التصوف من القول إلى الفعل في أيامنا هذه ستجعل العقول ترى توسع مجال اهتمام التصوف ونشاطاته.

إن التصوف مسؤوليةٌ يحملها أولئك الربَّانيون تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين، فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالشفقة والرحمة والمحبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته.

فالتصوف ليس حياة يضع فيها المرء نفسه في تكيَّة من أجل كماله المعنوي، لا بل إن تقديم الخدمات لمدة محددة بقلب واعٍ مدرك يماثل طرائق التربية التي تتبعها بعض الطرق الصوفية مثل العزلة والإنزواء ابتغاء تطهير العالم الداخلي.

وليس التصوف انعزال المرء في تكية أو زاوية وعدم التدخل في الأمور الدنيوية، بل الخدمة من أجل تنوير العالم الخارجي وتنظيمه بفيوضات الفؤاد التي تتجلى في التكايا والزوايا، وتعليم الناس أن النجاة في دار الخلود سبيلها خدمة الآخرين من أجل نجاتهم.

وكان من أقوال والدي الشيخ موسى رحمة الله عليه في هذا الشأن:

«إن طريقتنا ليست الانزواء في زاوية، بل هي السير على نهج الصحابة الكرام...هي الخدمة ليل نهار. إننا نداوم بكل محبة على أورادنا، ونستمر في مجالسنا، ونبذل أيضًا كل جهدنا في سبيل خدمة المجتمع».[٩٧]

٩٧. صادق دانا، مجالس ألتن أولوق، ٥، ص٤٠.

والحق أن مجال الخدمة الذي يعمل التصوف فيه ليس كما يفهمه الكثير من الناس حين يظنون أنه مجال يتنعم فيه المرء بالهدوء والسكون؛ بل مجال فيه الجد والكد، مجال يتنوع ويتغير بتغير ظروف الزمان والاحتياجات والضرورات، فإن كان في المجتمع تقصير في النشاطات العلمية أو نقص وفتور في خدمات التبليغ والإرشاد، فإن الخدمة في هذا المجال تكون على رأس جدول الأعمال. وحين تتعرض البلاد لكوارث مثل السيول أو الحرائق أو الزلازل أو (تسونامي)، أو تعصف بها مشاكل اجتماعية واقتصادية مثل الحروب أو المجاعات، عندها تظهر التضحيات المادية والبذل والإنفاق والإيثار. فليس المقصود إذًا البقاء في مكان محدد والاقتصار على خدمة معينة، بل التشمير عن السواعد في زمن الحاجة وحين يكون هناك نقص وتقصير في موضوع ما.

ونحن إن تصفحنا التاريخ سنجد أن المؤسسات ذات الأصل الصوفي كانت تحمل المسؤوليات الاجتماعية في الإسلام منذ زمن طويل وليس هو بالأمر المستحدث، فالأولياء الصالحون الشجعان والدراويش البواسل هم أول من توجهوا إلى بلاد الأناضول ابتغاء إدخال أهلها الإسلام. والدراويش هم أيضًا من حملوا راية الإسلام في البلقان، وزرعوا في الأفئدة بذور الإيمان. أما في أفريقية فكانت الطرق الصوفية هي التي حفظت

الإسلام مع وجود كل البعثات التبشيرية النصرانية هناك. وإذا توجَّهنا تلقاء روسيا سنجد أن التيارات الصوفية هي التي أبقت الإسلام حيًّا في القلوب طوال سبعين سنة تحت نير الإلحاد وظلم الملحدين. ففي كل مكان انتشرت فيه الطرق الصوفية حافظ الناس على هويتهم الإسلامية على ما تعرضوا له من جور واضطهاد. وحيثما حلَّ التصوف كان الإسلام شامخًا كالشجرة الباسقة لا يضيرها شيء، والدليل على ذلك ما نقرأه في كتاب «الصوفي والضابط» الذي يبحث في أثر الإسلام -أو التصوف على وجه التحديد- في محافظة إخوتنا على هويتهم ووجودهم تحت ظلم النظام السوفيتي.

ولا بد لنا أن نذكر هنا طريق كبار العلماء والأولياء الذين جعلوا طريقتهم قائمة على المفهوم السني للإسلام، فصانوا المنسوبين والمريدين من التيارات الباطنية والحروفية. ولم يقتصر العثمانيون على السعي في سبيل تحقيق غاية دولتهم الأساسية، وهي تنفيذ الأحكام الشرعية، بل سعوا لتربية القلب وتطهيره إلى جانب إخضاع العقل والإرادة -لاسيما العلماء ورجال الدولة في الحقبة الأخيرة- ففضَّلوا الطريقة النقشبندية التي استوعبت العلوم الظاهرية والأحكام الشرعية كما ينبغي، فانتشرت هذه الطريقة انتشارًا واسعًا في البلاد التي كانت تخضع للدولة العثمانية العليَّة.

ولكن الإيمان بدأ يفتر في القرن التاسع عشر والتمسك بالدين بات ضعيفًا في بلادنا نتيجة تأثير الغرب الذي ابتعد عن الدين بسبب المذاهب العقلية الوضعية. فكان لانتشار الطريقة النقشبندية الخالدية المتمسكة بالشريعة الغراء آنذاك دورٌ كبير وعظيم في إيقاف هذه التيارات الفكرية السيئة، على يد المرشدين الكاملين الذين يعود كل فضلهم لمولانا خالد البغدادي.

فقد قدَّم مولانا خالد البغدادي خدمة عظيمة جليلة حين ربَّى مئات المرشدين والمريدين، ونشرهم في البلاد الخاضعة للعثمانيين، ساعيًا إلى زيادة عدد المسلمين الواعين الناضجين. ولعل هذا الانتشار الروحاني للطريقة كان عاملًا كبيرًا في تجاوز أمتنا المصائب الكبرى، وصون ديننا وعزنا وشرفنا.

وكان للتصوف من جانب آخر وظيفة حياتية عظيمة في سبيل طمأنينة الفرد والمجتمع ونشر السكينة والهدوء، فتوسَّع وزاد انتشاره، لاسيما إن كان حديثنا عن حالتين:

- حين كان التصوف عزاء للأرواح في الأوقات العصيبة.
- وحين كبح جماح النفوس في أوقات الراحة والسعة.

والحق أن التصوف على مدى التاريخ قد وقف حاجزًا منيعًا أمام الكسل والخمول في أوقات الرخاء الاقتصادي والترف

الاجتماعي، واستطاع خلال الأوقات العصيبة المليئة بالاحتلال والظلم أن يُوجِد متنفَّسًا روحانيًا يتسامى بالأفئدة فوق حطام الدنيا وظلامها الكئيب، وقدم بلسمًا للأفئدة الجريحة.

وهذا السلوك سلوك نبوي بالتمام، فقد كان رسول الله ﷺ حين تنزل عليه نعمة أو يحقق نصرًا يقول:

«اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ...»[(٩٨)]

فيمنع ميل القلوب إلى الدنيا، ويحميها من الغرور والأنانية. وحين تصيبه مصيبة أو يحل به همٌّ كان يكرر قوله:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» فيحذِّر القلوب المؤمنة من الوقوع في مستنقع اليأس والشكوى والأسى بسبب الهموم المادية، ومن الابتعاد عن حال الرضا بقضاء الله وقدره؛ وبذلك قدَّم لأمَّته الوصفة المعنوية كي تحيا في سكينة وأمن وأمان في كل حال.

ولن ينجو الإنسان من الأزمات والضيق سواء أكان في سرَّاء أم ضرَّاء ما دام بعيدًا عن الروحانية؛ فهو بحاجة لكبح هواه في السرَّاء، وللمواساة في الضرَّاء.

لذلك يجب عليه في كلا الحالين أن يتَّبع التصوف القائم على الأصول النبوية في التربية.

---

٩٨. البخاري، الرقاق، ١.

وثمة جانب آخر في التصوف لا بد أن نذكره هنا، وهو أسلوبه وطريقته في إصلاح الناس. ففي عالم غارق في شهوات النفس واستعباد العقل وسيادة المادة، وفي وسط أناس قد أسرَتهم الدنيا، وأهلكتهم الذنوب، ولم يعد لديهم أمل في النجاة؛ تبرز أهمية المحبة والرأفة والعفو والمسامحة أسلوبًا للإنقاذ والعلاج والهداية. فتهب نسائم الإسلام على الأرواح الخاضعة لسلطان العقل والنفس كنفحة تسكِّن الآلام، وتحملها بوداعة إلى سبيل النجاة والفلاح. فالتصوف يقبل على المذنب -لا الذنب- بالرحمة والمسامحة، ويراه كالطير المكسور جناحه يحتاج الرأفة والاهتمام.

ولا ريب أن نجاح جهود أهل التصوف وأعمالهم على مدى التاريخ هو السبب في إبقاء الإسلام حيًّا في القلوب وانتقاله إلى الأجيال القادمة، وفي إرشاد الناس وتبليغ الدين الحنيف.

ويبيِّن محمد حميد الله وهو من أبرز علماء الإسلام في القرن الماضي هذه الحقيقة بقوله:

«ومنذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في محيط مثل باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول المسيحيين للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام، ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي.

وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طُلب مني إيضاح في إحدى الموضوعات الإسلامية، لم تكن أجوبتي وأدلتي العقلية مقنعة للسائل، ولكن الإيضاح الصوفي لم يتأخر عن إعطاء ثمرته. وبدأت أفقد بالتدريج قوة تأثيري في هذا الموضوع، والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوربا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب - أي التصوف- كما كان الحال في زمن (قزان خان) عقب الدمار والخراب الذي سبَّبه هولاكو.

وبعد رؤيتي الجديدة في هذا الموضوع، بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، وهذا فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وطريق كبار متصوفة الإسلام، لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها.

ويبحث الإنسان بطبعه عن أسباب الواجبات التي كُلف بها، لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تُبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي تُقنِع الإنسان»[99]

٩٩. محمد عزيز لحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة إسماعيل حقي آقن، ص ١١٤-١١٥، هامش٨، اسطنبول، ١٩٧٢. وهذا الهامش هو نص الرسالة المؤرخة في٢٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧ والذي كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.

ونفهم من هذا التوضيح أن رفض التصوف المطابق تماماً للقرآن والسنة هو كُفرانٌ بالنعمة؛ عاقبته وبالٌ كبير.

فاليوم لا تقتصر معاناة العالَم على الجوع البدني فحسب، بل ثمة جوع روحي وتعطش قلبي يجعل الناس في ضيق وهمٍّ؛ فخير ملجأ هو ملجأ التصوف الذي تهب فيه نسمات تسعد الأرواح الحائرة.

ولا يخفى على أحد أن كتاب المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي هو في مقدمة الكتب التي تهتم بروح الإنسان وأكثرها انتشارًا في القارة الأمريكية.

ومن المواضيع التي تجذب انتباهنا هو إعلان (اليونسكو) عام ٢٠٠٧ «عام مولانا»، وهو العام الذي يوافق ذكرى مرور ٨٠٠ عام على ولادته.

وإذا انتقلنا إلى القسم الثاني من سؤالك حول بداية ميل التصوف إلى الأمور الدنيوية، فاعلم أن التصوف الحقيقي هو تربية القلوب لحمايتها من الوقوع في أسْرِ الدنيا، وإبعادها عن الغفلة بالذكر والصبر والشكر والقناعة والتفكر. والتصوف سعي لإخراج كل ما سوى الله من القلب كي لا يكون فيه إلا هو سبحانه وتعالى.

ولكن هذا لا يعني العزوف عن الدنيا بما فيها، بل الانشغال بالدنيا تحت قاعدة «اليد في الكسب والقلب مع الرب».

والحذر الحذر من جعل القلب مرتبطًا مع الله تعالى وكيسًا للمال في الوقت نفسه. وخير قدوة نقتدي بها في هذا الشأن حالُ سيدنا سليمان عليه السلام حين أُعطي من المُلك ما لم يُعطَ مثله إنس ولا جان لا قبله ولا بعده. فليس المقصود قطع الارتباط بالدنيا، بل الحيلولة دون إشغالها قلب الإنسان.

ويحذِّرنا رسول الله ﷺ أشدَّ التحذير فيقول:

«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».[100]

وقوله عليه الصلاة والسلام:

«مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ [الأمة الإسلامية] عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ ذَلِكَ نَصِيبٌ».[101]

«مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[102]

---

١٠٠. البخاري، الرقاق ٧، الجزية ١؛ مسلم، الزهد ٦.

١٠١. أحمد، جـ٥، ١٣٤.

١٠٢. انظر: أبو داوود، العلم، ١٢/ ٣٦٦٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢٣.

فاستغلال الدين والإسراف والمفاخرة والفخفخة طلبًا للدنيا ليست من حياة المسلم، وهدف التصوف هو إبعاد العبد عن مثل هذه الأمور التي تزيد من النفسانيات، وهنا لا بد أن يكون أرباب التصوف في غاية الحذر والحيطة.

وكان من أقوال والدي موسى أفندي رحمة الله عليه:

«إن الإنسان في البداية يحب المال حبًّا جمًّا، ثم يأتي عليه زمان تنعدم فيه كل محبة حتى محبة المال. ثم يأتي عليه زمان يحب فيه الدنيا والمال مرة أخرى، لكن بمعنى آخر، إذ تكون غايته الكسب والعطاء في سبيل الله، وعندها يصبح إنفاق المال عبادة، ويغدو كل عمل ذا نفع وفائدة له ما دام لم يكن لنفسه فيه نصيب».[١٠٣]

وخلاصة القول هي أنه ينبغي للمسلم أن تكون نيته العبادة حين ينشغل بالدنيا، كي يدرك حقيقة عالَم الفناء ويستعد لعالَم البقاء. ولا بد أن تكون غايته السعي والعمل كي يمنع قلبه من الميل إلى الأمور الدنيوية المادية الفانية، ويسعى لشق طريق يأخذ قلبه إلى الروحانية عبر كل أمر مادي.

---

١٠٣. مجلة التون أولوق، نيسان، ١٩٩٧، عدد ١٣٤، ص٢٨.

المحتويات

المقدمة.. ٥
أ. أصل التصوف ١٣
ب. تعريف التصوف ٤٢
ت. موضوع التصوف ٧٤
ث. غاية التصوف ٧٧
ج. لزوم التصوف ٨٢
ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى ١١١
١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى ١١٢
أ. التصوف وعلم الكلام ١١٣
ب. التصوف والتفسير ١١٦
ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة ١٢٠
ث. التصوف والفقه ١٢٦
٢. التصوف والعلوم الطبيعية ١٣١
٣. التصوف والأدب ١٣٧
٤. التصوف والفنون الجميلة ١٤١
٥. التصوف والفلسفة: ١٥٢
خ. العلم النافع ١٥٨
التصوف رشحة وقطرة قلبية ١٧٥
هل التصوف ضروري؟ ١٨٩
تساؤلات حول التصوف.. ٢٠٦

دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً

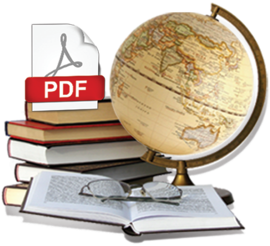

يمكنكم الآن تحميل حوالي ١٠٠٠ من الكتب الإسلامية
بـ ٥٠ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.net

تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العربية - الأذرية - الباشكيرية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية
التتارية القرم - الهولندية - الجورجية - الهندية - الألمانية الهوسا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - اللوغندية
المسخيت التركية - المالیزية - الرومانية - المنغولية - المورية - التركمانية - التيغرينية - السواحلية - الطاجكية - الأمهارية - الصينية التقليدية - الكورية التوية
الأوكرانية - الأغورية - الأوزبكية - الولوفية - الزرمية - الأورمية - الفارسية - الأردية - السلوفينية

www.islamicpublishing.net